ستيفان زفايغ

أموك

سعار الحب

رواية

ترجمة: ناظم بن إبراهيم



ستيفان زفايغ



ترجمة: ناظم بن إبراهيم



عنوان الكتاب الأصليّ

Amok
Stefan Zweig

عنوان النسخة المعتمدة في هذه الترجمة

Amok ou le fou de Malaisie
Stefan Zweig

Traduction par Alzir Hella et Olivier Bournac

الكاتب: **ستيفان زفايغ**

عنوان الكتاب: **آموك: سعار الحب**

ترجمة: **ناظم بن إبراهيم**

تدقيق: **شوقي العنيزي**

خط الغلاف: **الفنّان سمير قويعة**

تصميم الغلاف: **الشاعر محمّد النبهان**

ر.د.م.ك: **978-9938-992-64-9**

الطبعة الأولى: 2018



مسكيلياني للنشر والتوزيع

15 نهج أنقلترا تونس- تونس العاصمة

الهاتف: 21512226(216+) أو 537090811(966+)

الإيميل: masciliana_editions@yahoo.com



Ottawa, ON. Canada

info@masaapublishing.com

www.masaapublishing.com

كلمة المترجم

الـ«آموك» Amok: هو سلوك إجراميّ لاحظهُ الدّارسون في مناطق مختلفة من العالم، وخاصّة في المناطق الاستوائيّة. تمّت دراستهُ وتحديد تسميته الإثنوغرافيّة في ماليزيا. وهو سُعار مفاجئ يركض على أساسه المريض بلا توقّف قاتلاً كُلّ من يعترضهُ. ولم يُتوصَّل إلى تحديدِ سببٍ واضح له، ولا إلى معالجته إلّا عن طريق قتل المريض في أسرع وقتٍ ممكنٍ قبل أن يتمكّن من إيذاء أناس آخرين. أمّا عنوان الترجمة العربيّة لهذه الرواية فهو تحويلٌ تفسيريٌّ للقارئ العربيّ، ارتأينا اختيارهُ بناءً على أمرْين أساسيّيْن:

-**الأوّل**: الاستناد إلى عنوان الرواية الأصليّ Der Amokläufer الّذي يعني حرفيًّا: «الرّاكضُ في حالة آموك»، وهي حالةُ سُعار عنيفة سيتأسّسُ عليها مجمل السرد في الرواية.

-**الثاني**: النظر في خصوصية الاشتغال الّذي قام به زفايغ في الرواية، وأدّى إلى إضفاء معنى خاص على كلمة «آموك» الماليزيّة المنحصرة إيتيمولوجيّا في الإحالة على الحد النفسيّ المرتبط بالطابع العدوانيّ العنيف لهذا النوع من السّعار، وربطها عوضًا عن ذلك بحالة من الشغف العميق والمفاجئ

بامرأة عابرة. فـ«سُعار» زفايغ لم يتأسّس على إسقاط المفهوم النفسيّ Projection على الكتابة الروائية فحسب، بل خلق لهُ سياقًا روائيًّا متوتّرًا أساسهُ موضوع: «المرأة»، وتشكّلت الرواية داخل ثنائيّات الاتّصال به أو الانفصال عنهُ. ما يجعلُ من «سُعار الحبّ» أقرب في رأينا إلى الرواية وعوالمها، من الترجمة الفرنسيّة التي اختارت «مجنون ماليزيا» عنوانًا لها، رغم توفّر ما يُبرّرُ ارتباط الحُبّ بالجنون في الثقافة العربيّة.

ناظم بن إبراهيم

في شهر مارس سنة 1912، وقعت حادثة غريبة أثناء إفراغ حمولةِ باخرةٍ عابرة للمحيطات في ميناء نابولي. ولئن استفاضت الصّحُف في الحديث عنها، فقد غلب عليها الكثير من التزويق والإضافات الخياليّة. ورغم أنّي كنت من بين ركّاب «أوسِيَانْيَا»، لم يكن متاحًا لي أن أكون أقربَ من الآخرين إلى هذه الحادثة الفريدة ولا شاهدًا عليها، ذلكَ أنّها وقعت ليلاً، عندما كان العمّالُ منشغلين بتموين الباخرة بالفحم وإنزال البضائع منها، بينما نزلتُ مع بقية الركّاب هروبًا من الضّجيج لتمضية الوقت في إحدى المقاهي أو المسارح.

مع ذلك، أعتقدُ أنّ بعض الافتراضات الّتي لم أَبُحْ بها وقتها، تنطوي على التفسير الحقيقيّ لذاك المشهدِ المؤثّر، وأنّ مرور كلّ هذه السنوات يسمحُ لي الآن بالاستفادة من تلك المحادثة السريّة التي سبقت هذه الواقعة الغريبة مباشرةً.

عندما أردتُ حجز مكان على متن «أوسِيَانْيا» في وكالة الشّحن البحريّة بـ«كالْكوتا»[1] قصْدَ العودة إلى أوروبا، هزّ الموظّف بكتفيه آسفًا: لم يكُن يعرفُ ما إذا كان من الممكن تأمين حُجرة لي، فمن العادة بُعَيْدَ مواسمِ الأمطار أنْ تكون أغلبُ الغرف محجوزةً منذ

(1) سافر زفايغ إلى الهند في نوفمبر 1909، وزار في هذه الرحلة التي دامت أكثر من ستة أشهر عددًا من المناطق مثل سيلان ومادراس وكالكوتا والأندوشين. (المترجم).

انطلاق الباخرة من أستراليا، وكان عليه -كيْ يجيبني- أن ينتظر برقيّةً من سنغافورة.

في اليوم الموالي، جاء الخبر السّارُّ وتمكّنتُ أخيرًا من حجز غرفة. في الحقيقة، لم تكن سوى مقصورة صغيرة غير مريحة في الطّابق السُّفليّ وسَط الباخرة، لكنّ حرصي الشّديد على العودة إلى بلدي دفعني إلى عدم التردّد في القبول بها.

لم يخدعني الموظّف. لقد كانت الباخرة حقًّا مُحمّلةً فوق طاقتها، وكانت المقصورة رديئة. قُمرة ضيّقة لصيقة بالمحرّك لا يُضيئها غير خيط ضوء خافت يدخل من كوّة دائريّة في سقفها، يمكنك أن تستنشق في هوائها الخانق والنديّ رائحة الوقود والعفن، ولا يمكنك أن تهربَ لحظة واحدة من أزيز المروحة الكهربائيّة العلويّة وهي لا تفتأ تدور حول رأسك مثل خفافيش مجنونة. في الأسفل، كان المحرّكُ يلهثُ ويئنُّ مثلَ عامل فحم لا يتوقّف عن الصعود والنّزول من نفس الدّرج لاهثًا، وفي الأعلى، يمكنك أن تسمع باستمرار وقع أحذية المسافرين أثناء تنزّههم على السّطح.

بمجرّد أن أدخلتُ حقيبتي إلى المقصورة الأشبه بالقبر بعوارضها الرماديّة وأبخرتها النتنة، ركضتُ لاجئًا إلى السّطح، وما كدتُ أصلُ إليهِ خارجًا من تلك الهوّة حتّى استنشقتُ هواء الأرض العليل فوق الأمواج كما لو كنت أستنشقُ عنبرًا زكيًّا.

لم يكُن السّطحُ أقَلَ إزعاجًا وضوضاءَ، ولم تكُن الحركة فيه سوى دبيب مستمرّ لخليط من المتجوّلين، يتعاملون تعامُل المساجين

المحكوم عليهم بالعطالة، يصعدون وينزلون ويتجاذبون أطراف الحديث بلا توقّف. ثرثرة النساء الأشبه بالنقيق، والحركة المستمرّة في الممرّ الضيّق، أسراب المارّة المنكسرة عند المقاعدِ مثل موجةٍ وسط صخب المحادثات. كلّ هذا، سبّب لي انزعاجًا لا يوصف.

كنتُ أكتشفُ عالماً جديدًا، وكانت الصور العالقة منه بذاكرتي تزدحم بسرعة كبيرة في رأسي، وها أنا الآن أحاول استحضارها وترتيبها لإعطاء صورة واضحة عن العالم الصّاخب الّذي كان يتبدّى بين عينيّ. لم يكُن لي وسط ذلك الممرّ المغزوّ بحشود المسافرين أن أنعم بلحظة هدوء واحدة. كنتُ إذا ما أخذتُ كتابًا تتداخلُ أسطرهُ ضائعةً في ظلال المتسكّعين وثرثرتهم. وكان من المستحيل أن أركّز في ذاك الشارع المظلم وهو يمضي مع الباخرة.

أجبرتُ نفسي على التصالُح مع ما أنا فيه طوال ثلاثة أيام، واخترتُ أن أتأمّل البحر والنّاس. فأمّا البحر فكان يُشبهُ نفسه طوال الوقت منطويًا على زرقته باستثناء لحظة الغروب إذ ينصهر مع بقيّة الألوان؛ وأمّا النّاس فقد عرفتُ جميعهم حقّ المعرفة في تلك الفترة الوجيزة وأِلفتُ كلّ الوجوه.

لم تعد قهقهات النّساء العالية تُهمّني، ولم يعد العراك الصاخب الدائر بين الضابطين الهولنديّيْن المجاوريْن يغضبني. لم يبق لي غير الهروب في كلّ مرة إلى مكان آخر. الحرارة في مقصورتي مرتفعة والبخارُ يعمّ المكان، وفي غرفة الجلوس العلويّة، فتيات انجليزيّات يعزفن بلا توقّف موسيقى رديئة مصاحبة لـ«فالس» غير منسجم.

لتجنُّب كلّ هذا، قرّرتُ في النهاية إعادة ترتيب وقتي، وذلك ما فعلتهُ في اليوم الموالي. نزلتُ إلى المقصورة منذ منتصف النهار بعد أن ثملتُ ببعض كؤوس البيرة لأتمكّن من النوم حين يكون الآخرون مشغولين بتناول العشاء أو بالرقص.

وعندما استيقظتُ، كان كلّ شيء قاتمًا ونديًّا في قبري الصّغير. وحين أغلقتُ المروحة، صار الهواءُ الثقيلُ النديّ يُلهبُ صدغيَّ. وجَدْتُ حواسّي كلّها معطّلة، واحتجتُ إلى دقائق عديدة كي أستوعب في أيّ زمان أنا وفي أي مكان. كنتُ متأكّدًا من أنّ الوقت قد تجاوز منتصف الليل، ذلك أنّي لم أسمع أيَّ موسيقى ولا أيّ وقعٍ مستمرّ لأقدام المارّة. وحدهُ المحرّكُ ، قلبُ هذا التنّين المتعب، كانَ يلهثُ بلا توقّف دافعا هيكل الباخرة المطقطق نحو المجهول.

صعدتُ إلى السطح متحسّسًا الطّريق. كان المكان مظلمًا. وعندما رفعتُ ناظريَّ إلى رأس المدخنة وصواري الباخرة المنتصبة مثل أشباح، امتلأت عيناي فجأة بسُطوع ضوء باهر. ورغم الظلام المحيط بالنجوم وهي تَخِزُ الفضاء بوميضها الأبيض، كانت السماء متلألئة كما لو أنّ ستارًا مخمليًّا عُلّقَ أمامها، وكما لو أنّ النجوم لم تكن سوى شروخ فيه، يمرّ منها وهج هذا الوميض الرائع.

لم أرَ في حياتي السماءَ مثلما رأيتها ليلتها، بزرقتها القاتمة والمتوهّجة في الوقت نفسه، بأشعتها وخفوتها وامتلائها بالضوء وهو ينهمرُ شبهَ ملثّم من القمر والنجوم، الضوء الّذي كان في احتراقه البعيد أشبهَ ببيتٍ غامض. وكما لو أنّها مطليّة بدهن أبيضَ، كانت ألواحُ الباخرة

الخشبيّة تلمع بقوّة تحت ضوء القمر منعكسة على سطح البحر المعتم. الحبال، ومقابض الأشرعة، ومعدّات الباخرة، كل شيء كان يتوارى في هذا البهاء العائم فوق الماء، بينما كانت أضواء الصواري، وأعلى منها قليلا، منظار برج المراقبة الدائريّ الغارق في الفراغ، أشبهَ بنجوم أخرى تنضاف إلى النجوم المتلألئة في السماء.

تحتَ رأسي تحديدًا، كانت كوكبة نجوم برج صليب الجنوب[1] معلّقة في المطلق بلآلئها المبهرة وكأنّها تتحرّكُ في السماء، في حين لم تكن تتحرّك سوى الباخرة وهي تتمايل بصدرها اللاهث في هدوء، صاعدة ونازلة مثل سبّاح عملاق يشقُّ طريقهُ وسط الأمواج القاتمة.

كنتُ واقفًا أنظرُ إلى الأعلى. أحسستُ كما لو أنّي في حمّام دافئ، يتهاطلُ الماءُ الحارُّ فوقي، ولكنّه ماءٌ من الضوء يتدفّقُ فاترًا وأبيضَ فوقَ يديّ ليلفّ كتفيَّ ورأسي بهدوء، حتّى بدا لي أنّهُ يريد أن يخترق كلّ كياني، وأحسست بأنّ كلّ ما لازمني من خمولٍ وثمالةٍ قد اختفى فجأة.

تنفّسْتُ بحُريّة وصفاء، ومثل من يتذوّقُ شرابًا صافيًا بدهشة متجدّدة، تلذّذتُ الهواء العذب النقيّ والمُسكر بخفته وبما يحمله إلى شفتيّ من طعم الفواكه ورائحة الجُزر البعيدة. ولأوّل مرّة منذ صعدت على متن الباخرة، هيمَنتْ عليّ رغبة كبيرةٌ في الحُلم، إلى جانب رغبة أخرى، أكثر حسيّة، ألهمتني بأنْ أسلّم جسدي، مثل

(1) La Croix du Sud: كوكبة صغيرة من النجوم على شكل صليب في النّصف الجنوبي من الكرة الأرضية. من أصغر الأبراج التي يُستدلُّ بها على الجهات. وتضمّ مجموعة من النجوم تُسمّى: علبة المجوهرات La boîte a bijoux. (المترجم).

امرأة، إلى كلّ هذا الدفء الّذي يحاصرني من كلّ الجهات.

أردتُ أن أستلقي متطلّعًا إلى الحروف الهيروغليفية التي رصّعت السماء، لكنّ المقاعد أُزيلت كلّها، ولم يبق في سطح الباخرة المقفر مكان واحد يمكن أن أنعم فيه بأحلام هادئة.

كنت أقتربُ شيئًا فشيئًا من مقدّمة الباخرة متحسّسًا طريقي في الظلام، ومبهورًا من شدّة الضوء المتساقط من الأشياء بحيويّةٍ كبيرة ليتسلّل إلى كياني. جعلتني النّجوم ببياضها البارد ووميضها المتفجّر أحسّ بشيء من السوء. وأردتُ أن أهرب إلى مكان مّا مظلم كي أستلقي على سجّاد ولا أحسَّ هذا الضوء المنعكس في الأشياء داخلي، بل خارجي تماما كمن يشاهد منظرًا جميلاً من داخل غرفة غارقة في الظلام.

ظللتُ أتعثّر في الحبال وفي مقابض الحديد المثبتة على السطح إلى أن وصلتُ في النهاية إلى المقدّمة. كان صدر السفينة يتقدّمُ في الظلام، بينما يزبدُ الماءُ العائم في ضوء القمر على حافّتيْه الحادّتيْن. فكّرتُ لحظتها في إصرار هذه الجرّافة البحريّة المستمرّ وفي ارتمائها المتجدّد داخل هذا الحقل من الأمواج السوداء. وأنا أفكّر في هذه اللعبة المثيرة والمتكرّرة، أحسست بكلّ أوجاع الباخرة المقهورة، وكلّ الفرح الّذي يشعر به المرء عندما يكون على اليابسة.

وفي خضم تأمّل الأشياء حولي، نسيت الوقت. هل مرَّت ساعة كاملة وأنا على هذه الحال أمام السياج في مقدمة السفينة، أم أنها فقط بضع دقائق؟ لقد جعلني تأرجحُ هذا المهْد الضخم أتمايلُ معهُ،

وأخذني خارجَ الزمن. أحسستُ بتراخٍ يغمرني مثل لذّة خاطفة، وأردتُ أن أنام وأحلم، أَلاّ أبتعد عن هذا السحر، وخاصّةً ألاّ أعودَ إلى قبري في الأسفل.

علقت قدمي دون أن أقصد بحزمة حبال. جلستُ مُغمِضًا عيْنيَّ دون أن تكونا قد امتلأتا بالظلام بسبب أشعّة القمر الفضيّة الّتي تعمُّ المكان. أحسستُ بالماء يهدرُ تحتي بهدوء، بينما كان بياض العالم في الأعلى يتدفّقُ بصمتٍ. وشيئًا فشيئًا، تسلّلَتْ هذه الهمسات إلى عروقي. أحسست بشرود مفاجئ، ولم أعرف إن كانت هذه الأنفاس المتصاعدة أنفاسي، أم أنها دقّات قلب الباخرة البعيد وهو يضجّ بالهمس المستمرّ لمنتصف الليل.

فجأة، سمعتُ بالقرب منّي سعالاً خفيفًا. ارتعدت فرائصي، وخرجتُ مرعوبا من الأحلام التي كادت تغيّبني عن الوعي. كانت عيناي المبهورتان بضوء القمر الساطع المنهمر على جفنيَّ المغمضيْن منذ جلستُ، تحاولان التحديق في ما يوجد والتحقّق منه. وأمامي تماما، وسط ظلام السّياج الحديديّ لمعت انعكاسة نظّارتين، وبرزت شرارة دائريّة سميكة تتصاعد من غليون مُشتعل.

يبدو أنّني لم أنتبه، عندما جلستُ هنا متأمّلاً صدر الباخرة المزبد تحتي ونجوم صليب الجنوب فوقي، إلى وجود هذا الرفيق الّذي اضطرّ طوال كلّ هذا الوقت إلى البقاء جامدًا بلا حركة. ولّما أستوعب الأمر بعد، ودون أن أشعر قلت بلكنة ألمانيّة:

-المعذرة..

-العفو. أجاب صوت خارج من الظلام.

لا أستطيع أن أقول كم هو غريب ومرعب ذاك التقارب الصّامت في الظلام مع شخص لا نراهُ. أحسستُ بالرجل يحدّق في وجهي رغم أنفي، وبالطريقة نفسها التي كنت أثبّت بها عينيّ عليه، غير أن تدفّقَ الضوء فوقنا وبياضه الساطع كان قويًّا إلى درجة لم يستطع فيها كلانا أن يرى شيئًا آخر غير شبحٍ في الظلام. وبدا لي أنّني لا أسمع إلاّ صوتَ تنفّسه ونُفاث الدخان الخارج من غليونه.

لم أطق الصّمت الّذي خيّم بيننا، وأردتُ أن أغادرَ، لكنّ ذلكَ بدا لي فظّا ومفاجئًا. وفي غمرة ارتباكي، أخذتُ سيجارة. أشعلتُ الولّاعة فانتشر بريق لهيبها في الفضاء الرّحب بسرعة، ولمحتُ خلف بلّوْر النظّارتين وجهًا غيرَ مألوف لم أرهُ من قبل، لا أثناء أوقات الطعام ولا عند تجوّل المسافرين، وسواء كان ذلك بسبب اللهيب الّذي أوجع عينيّ أم مجرّدَ هلوسات، بدا لي وجههُ مضطربًا بفظاعة وكئيبًا مثل وجه قزم، وقبلَ أن أتمكّن من تبيّن تفاصيله، خيّمَ الظلام على ملامحه مُجدّدًا، ولم أعد أرى غير شبحٍ قاتمٍ خامدٍ في الظلام، ومن حين إلى آخر كانت شعلة غليونه الحمراء تخرجُ من الفراغ.

بقينا صامتيْن، وكان صمتنا الثقيل والمرهق أشبه بهواء المناطق المداريّة، ولم أستطع البقاء على ذلك الحال أكثر. فنهضتُ ثُمّ قلتُ بأدب:

-تصبحُ على خير.

-تصبح على خير. أجابَ وسط الظلام صوتٌ أجشّ وقاس كما لو كان صدئًا.

مشيتُ بصعوبةٍ متلمّسًا طريقي في الظّلام بين ألواح الخشب الكبيرة. وفجأةً، أحسستُ خلفي بخطوةٍ تتّجهُ نحوي باندفاع وتردّد. توقّفتُ دون أن أشعر. لم يقترب منّي تمامًا، وأحسستُ بكثير من الجزع والكآبة في خطوته.

قال بصوت متلهّف: «أرجو المعذرة، إذا رجوتُ منكَ شيئًا. أنا.. أنا..» -جعله ارتباكهُ متلعثمًا ومضطرًّا إلى التوقف عن الكلام- «لديَّ.. لديَّ أسبابٌ.. شخصيّةٌ.. شخصيّة تمامًا في البقاء هنا.. حِدادٌ.. أنا أتجنّبُ النّاس على سطح الباخرة.. أنا لا أخبرك بشيء.. لا.. لا.. أريد فقط أن أرجو منكَ شيئًا.. سأكون مدينًا لك إذا لم تخبر أحدًا أنّكَ رأيتني على متن الباخرة... أنّكَ رأيتني هنا.. إنّها.. لنقُل.. اعتبارات شخصيّة تمنعني الآنَ من مخالطة النّاس.. نعم.. الآن فقط.. الآن.. وسيكون من السيئ بالنسبة إليّ أن تقول إنّ شخصًا مّا هنا.. في الليل.. إنّني..»

غاب عنهُ الكلام مجدّدًا فسارعتُ لوضع حدّ لارتباكه بتأكيد موافقتي على تحقيق رغبته. تصافحنا، ثمّ عدتُ إلى مقصورتي ونمتُ نومًا مضطربًا ومليئًا برؤى مشوّشة.

وفيتُ بوعدي، ولم أحدّث أحدًا في الباخرة عن لقائي اليتيم بهذا الرجل، رغم أنّ ذلك كان أمرًا مغريًا، فأقلُّ شيء أثناء رحلة مشابهة يمكن أن يتحوّل إلى حدث مهمّ، كأن ترى شراعًا في الأفق أو أن

تلمح دلفينًا ينطّ، أو تسمع نكتة جديدة، أو حتّى أن تخوض في مزاح تافه. وفي الوقت نفسه، دفعني الفضول إلى الرغبة في معرفة مزيدٍ من المعلومات عن هذا الرّجل الغريب بعض الشيء.

بحثتُ في قائمة أسماء المسافرين علّني أجدُ اسمًا يمكن أن يكون اسمهُ. أعدتُ النظر في النّاس حولي كما لو كانت تربطهم به علاقة. قضّيت كلّ اليوم في شَرك عصبيّتي ونفاد صبري، وحرصتُ على العودة في المساء إلى ذاك المكان علّني ألتقي به مجدّدًا.

إنّ للألغاز نوْعًا من السلطة المحيّرة على نفسيّتي. دائما ما أحسُّ بحرقة عارمة لاكتشاف العلاقات بين الأشياء، ويمكن لأناس غريبي الأطوار بمجرّدِ حضورهم أن يخلقوا في داخلي رغبة في المعرفة ليست أقلّ عُمقًا من الرغبة العارمة في امتلاك امرأة.

بدا لي اليوم طويلاً وفارغًا وضائعًا من يديّ. نمتُ باكرًا. كنت أعرفُ أنني سأستيقظ منتصف الليل، وأنّ تلك الرغبة ستنتشلني من النوم. وهذا ما حدث فعلاً. نهضتُ في نفس توقيت الليلة السابقة. وتحت غطاء ساعتي اليدويّة الفسفوريّ، تماثل العقربان وتوحّدا في خطّ رقيق متوهج. خرجتُ مسرعًا من مقصورتي الخانقة، فوجدتُ نفسي في ليلٍ أكثرَ اختناقًا.

كانت النجوم ساطعةً مثل الليلة السابقة، مُشعّةً بضوئها المنتشر في أرجاء الباخرة المتهادية، وفي الأعلى هناك، يُشعّ صليب الجنوب في السماء. كان كل شيء على حاله. إنّ الأيام والليالي متشابهة في المناطق المداريّة مثل توأم حقيقيّ، فما بالك بتشابهها تحت خط العرض الّذي

نمرُّ تحتهُ الآن. رغم ذلك، لم أشعر بتلك الهدهدة المنسابة العميقة الحالمة التي شعرتُ بها الليلة السابقة. كان ثمّة شيء يجذبني ويشوّش تفكيري. كنتُ أعرفُ إلى أين أنجذبُ، إلى تلكَ الشباك في مقدّمة السفينة لمعرفة ما إذا كان ذاك الرجل الغريب جالسًا هناك بلا حركة كعادته.

في الأعلى، صفَّرَ جرس الباخرة مُطلقًا بخارهُ. تسلّلتُ خطوة بعد الأخرى يتنازعني التردّد والفضول الّذي لم أستطع مقاومته أكثر. وقبل أن أصلَ إلى رأس الباخرة، لمحتُ فجأةً وميضَ شيء أشبهَ بعين حمراءَ. إنّهُ الغليون.. إنّهُ يجلسُ هناك إذن !

ارتعدتُ دون أن أشعر، وتوقّفت عن السّير. كنتُ على وشك المغادرة عندما لمحتُ في الظلام شيئًا يتحرّكُ وينهضُ ثمّ يتقدّمُ خطوتين نحوي، وأمامي مباشرة سمعتُ فجأة صوتهُ المتأدّب والمليء بالمرارة في آن واحد:

«أرجو المعذرة. يبدو لي أنّك تريد العودة إلى مكانك سيّدي. وأحسستُ أنّك أردت الهروب عندما رأيتني هنا. تفضّل سيّدي. يمكنك الجلوس وأخذ راحتكَ، لأنّني سأذهبُ من هنا.»

توسّلتُ إليه البقاء وأخبرتهُ أنني بقيتُ في الخلف كيْ لا أزعجهُ.

«أنتَ لا تزعجني سيّدي». قال بشيء من المرارة الّتي لم تفارق صوته. «أنا سعيد، ولمرّة واحدة على الأقل، لأنّني لن أكون

وحيدًا. لم أتلفّظ بكلمة واحدة منذ عشرة أيام. في الحقيقة، منذ سنوات.. وإنّهُ لمن الموجع أن تحتفظ بكلّ شيء في داخلك، لأنّ ذلك بالتحديد ما قد يخنقك.. لم أستطع البقاء أكثر في مقصورتي.. في هذا الـ... التابوت.. لم أعد أطيق شيئًا.. لم أعد أحتمل النّاسَ لأنّهُم يضحكون طوال اليوم.. لم أعد أستطيع تحمّل هذا الآن.. إنّني أسمعهم عندما أكون في المقصورة فأسدُّ أذنيّ.. صحيحٌ أنّهم لا يعرفون أنّ... لا، إنهم لا يعرفون.. ثُمّ، فيمَ يمكن أن يضرَّ ذلك الغرباءَ؟»

توقّف مرّة أخرى، ثمّ أضاف على نحو سريع:

«لكنّني، لا أريد إزعاجك.. اعذرني على ثرثرتي.»

استدار ثمّ همَّ بالذّهاب، لكنّي قلتُ بإصرار:

«أنتَ لا تضايقني مُطلقًا. أنا أيضًا سعيد بالحديث مع أحدهم هنا في سلام. أتريد سيجارة؟»

أخذ واحدة. أشعلتُها له. برزَ وجههُ مجدّدًا متمايلاً على الشباك السّوداء، لكنّهُ كان ملتفتا إليَّ هذه المرّة. وخلف نظّارتيه، كانت عيناهُ تتفرّسان وجهي بشرود وكأنهما تهذيان. سرَتْ قشعريرة في داخلي. فهمتُ أنّ هذا الرّجل يريد التكلّم. كان يجبُ أن يتكلّمَ، وكنتُ أعرفُ أنّهُ عليّ أن ألزمَ الصمت لمساعدته على ذلك.

جلسنا أحدُنا قبالة الآخر. قدّم إليّ مقعدًا إضافيًّا لديه. كانت سيجارتانا تشعّان، وكانت جمرة سيجارته المضيئة تتحّركُ بعصبيّة

في الظلام. لمحتُ يدهُ المرتعشة، لكنّي لزمتُ الصمت، ولزم هو الصمت أيضًا. وفجأةً، سألني بصوت منخفض:

-هل أنتَ متعبٌ سيّدي؟

-لا. مُطلقًا.

واضطربَ صوته القادم من الظلام مجدّدا:

«أريد أن أطلب منك شيئًا.. أقصد أريد أن أروي لكَ شيئًا.. أعرف، أعرف كم هو سخيف من ناحيتي أن أتوجّهَ بهذه الطريقة إلى أوّل شخص ألتقي به... لكن.. أنا.. أنا في حالة نفسيّة فظيعة.. لقد وصلتُ إلى نقطة يتحتّم عليّ فيها أن أتحدّث إلى أحدهم.. أو سأضيع.. أنتَ تفهمني سيّدي.. نعم، أعرفُ في حال أخبرتُكَ أنّك لن تستطيع مساعدتي.. لكنّ هذا الصمت يجعلني مثل مريض.. والمريضُ مثيرٌ لسخرية الآخرين دائما.»

قاطعتهُ ورجوتهُ ألاّ يقلق حيال الأمر. صحيحٌ أنّه لا يمكنني -بطبيعة الحال- أن أعدهُ بشيء إذا كان يرغب في الحديث حقّا، لكنْ كان من الواجب على الأقلّ أن أبيّن لهُ استعدادي التّام للاستماع إليه، وعندما يجد المرء شخصًا مّا في محنة، يتوجّب عليه دائمًا أن يكون في خدمته.

«الواجب.. في إبداء الاستعداد.. الواجب في المحاولة.. أنتَ تعتقد إذن، مثلي، أنّه ثمّة أشياء تتوجّبُ علينا.. أنّهُ يتوجّبُ علينا إبداء استعدادنا...»

كرّر هذه الجملة ثلاث مرّات. جعلتني طريقته الصمّاء والمتبلّدة في تكرار الأشياء أرتعدُ. هل يكون هذا الرّجل مجنونًا؟ هل يكون سكرانَ؟ وكما لو أنّه دخل إلى رأسي وسمعني أفكّرُ في هذا الافتراض، قال فجأةً بصوت مختلف:

«ربّما تظنّ أنّني سكران أو مجنون. لا. لستُ كذلك. ليسَ بعد... كل ما في الأمر أنّ كلماتك أثّرت فيّ بشكل غريب جدًّا.. غريب جدًّا، لأن ذلكَ ما يعذّبني الآن: هل يتوجّبُ علينا... يتوجّبُ علينا...»

عاد يمهمهُ مجدّدًا. توقّفَ بُرهةً، ثمّ أضاف وقد أخذ كلامه مسارًا جديدًا:

«اسمع.. أنا طبيب، وغالبًا ما يواجهُ الطبيب حالات فظيعة !... نعم، لنقُل حالات قصوى، لا نعرف فيها إن كان يتوجّبُ علينا.. وفي الحقيقة، لا يوجد غير واجب واحد، هو ذاك الواجب تجاه الآخر، لكن أيضا تجاه أنفسنا، وواجبٌ تجاه الدولة، وآخر تجاه العِلم.. يجب على المرء أن يكون متعاونًا.. أكيد.. ولذلك وصلنا إلى هذه النقطة.. لكنّ هذا النوع من القواعد ليس في النهاية سوى كلام نظريّ... على أيّ أساس يمكن للمرء أن يكون متعاونًا؟... مثلا، أنتَ شخص غريب، وأنا غريب بالنسبة إليكَ أيضًا، ومع ذلك أطلبُ منكَ ألاّ تخبر أحدًا بأنّكَ رأيتني.. حسنًا ! لزمتَ الصمتَ وأتممت هذا الواجب.. أطلب منكَ أن ترفع الكلفة في الحديث معي لأنّ صمتي يكاد يقتلني،

وها أنت مستعدّ للاستماع إليّ.. هذا جيّد.. لكنّ ذلك سهلٌ.. لأنّه إذا حصل وطلبتُ منكَ أن تكبّلني وترميني في البحر.. من المؤكّد هنا أنْ تنتهي المراعاة والإحساس بالواجب. ثمّة بالتأكيد حدودٌ في مكان مّا.. حيثُ يدخلُ وجودك الذّاتيّ ومسؤوليّتكَ تجاه الأشياء في اللعبة.. ويجب على هذه الحدود أن توجد... أليست للواجب حدود صارمة... أم أنّ هذا الواجب لا يتوقّف بالنسبة إلى الطبيب عند أيّ حدّ؟ هل يتوجّب عليه أن يكون المنقذ والرّاعي الكونيّ فقط لأنّهُ يملك شهادة بحروف لاتينية؟ هل يتوجّب عليه حقًّا، أن يضحّي بحياته ودمائه عندما تطلب منه امرأة... يطلب منهُ رجل أن يكون نبيلاً ومتعاونًا وطيّبًا؟[1] نعم.. ينتهي الواجب... ينتهي الواجب عند حدود مّا... ينتهي هنا حيثُ لم نعد نملك القدرة على إتمامه.. بالتحديد هنا...»

توقّف عن الكلام مرّةً أخرى، ونهض بغتة.

«أرجو المعذرة.. ها أنا أتداعى في الكلام... لكنّني لستُ سكران.. لستُ سكران بعد... الشيء الّذي غالبا ما يحدث لي في هذه الأيام، في هذه الوحدة الشيطانيّة.. أعترف لك بذلك.. أريدك أن تعرف أنّي لا أعيش منذ سبع سنوات إلا مع الغرباء والحيوانات تقريبًا.. وذلك يُنسي المرءَ كيف كان يتكلّم

(1) نبيلا ومتعاونا وطيّبا: Edel sei der Mensch, hilfreich und gut، اقتباسٌ حرفيٌّ للبيت الأوّل من قصيدة لغوته Goethe عنوانها Das Gottliche «الإلهيّ». (المترجم).

بأريحيّة.. وبمجرّد أن يبدأ الحديث مجدّدا حتّى ينفجرُ كلّ شيء فجأة. لكن انتظر... نعم، أعرف الآن.. أريد أن أطلب منك شيئًا، أريد أن أعرض عليك حالةً تتعلّق بمعرفة ما إذا كان يتوجّب على المرء فيها تقديم المساعدة... تقديم المساعدة ببراءة ملائكيّة... إنْ كان... وباستثناء هذا، أخشى أن يطول عليك ذلك. ألستَ متعبا حقًّا؟»

-لا. مطلقا.

-أشـ... أشْكركَ... هل أنت مستعدّ؟

تحسّسَ شيئًا في الظلام خلفهُ. سمعتُ صوت كؤوس وارتطام زجاجتين أو ثلاث أو أكثر، من الزجاجات الّتي وضعَها قربهُ. قدّم إليّ كأسًا من الويسكي، وما إن بدأت أتذوّقهُ بشفتيّ حتّى قلب هو كأسَهُ دُفعةً واحدة. خيّم الصمت بيننا برهةً. دقّ الجرس: نصف ساعة بعد منتصف الليل.

«إذن.. أريد أن أروي لك واقعة.. تخيّل أنّ طبيبا في قرية صغيرة.. أو بالأحرى في الرّيف.. طبيبًا.. طبيبًا...»

توقّفَ مرّةً أخرى، ثمَّ قرّبَ مقعدهُ فجأةً منّي.

«لا. ليس هذا. يجب أن أروي لك كلّ شيء، بوضوح، منذ البداية وإلاّ لن تفهم شيئًا. إن قصّة مشابهة لا يُمكن أن تكون مثالاً أو أنموذجًا يُحتذى به. ويجب أن أروي لك قصّتي الخاصّة.. بلا خجل أو مداراة.. مثلما يقف الناس أمامي عراةً ويكشفون لي

عن سوءاتهم وبولهُم وبرازهم.. عندما نطلب المساعدة، لا يجب أن نواري شيئًا، يجب أن نقول كلّ شيء... لن أروي لك قصّةَ طبيبٍ وهميّ تخيّلته في ذهني. لا. إنني أتعرّى أمامك، وأقول: أنا. لقد نسيت ما يكون عليه الخجلُ في هذه الوحدة الجهنمية، وفي هذا البلد اللعين الّذي يُفسدُ روحكَ ويستنزفُ مشاعرك حدّ النخاع.»

يبدو أننّي قمت لحظتها بحركة مّا دون أن أشعر، ذلك أنّهُ توقّف قائلاً:

«آه ! أنت مُعترض... أتفهّم هذا، أنتَ منبهر بالهند، بالكنائس والنخيل، وكلّ الرومانسية التي نجدها في رحلة تدوم شهرين. نعم، إنّ هذه المناطق المدارية رائعة، عندما نراها من القطار أو السيّارة أو الـ«ريكشا»[1]، ولم يكن لديّ انطباعٌ مختلف عندما جئتُ إلى هنا أوّل مرّة منذ سبع سنوات. ويا لهُ من حلم لم أستطع تحقيقه! أردتُ أن أتعلّمَ اللّغات، وأن أقرأ الكتب المقدّسة في لغتها الأصليّة، أن أدرس الأمراض وأقوم بالبحوث، لقد أردتُ أن أسبرَ أغوار روح السكّان الأصليّين -نعم، هذا ما يقوله الأوروبيون دائما – وباختصار، أن أكون خادمًا للإنسانيّة وللحضارة.

إنّ كلّ من يأتون من هذا الجانب يحلمون بالأحلام نفسها. لكنّ

---

(1) La rikscha: كلمة يابانيّة تعني العربة المتكوّنة من عجلتين فقط، ويقودها شخص على القدمين أو على درّاجة. (المترجم).

قوّتك ستفتر بسرعة في ذاك الاحتباس الخانق الّذي لا يمكن للسائح أن يلحظهُ، وسترهقكَ الحُمّى، وسيكون عليك وقتها التهام أكثر ما يمكن من «الكينين» وهو بدوره سيلتهمُ جسدكَ لينتهي بك الأمر مترهّلاً وكسولا، فتصبح أشبه بدجاجة واهنة أو أقرب إلى إحدى الرخويّات.

إنّ الأوروبيّين متعلّقون بذواتهم بشكل أو بآخر، وعندما يأتون من المدن الكبيرة إلى إحدى هذه القرى اللعينة الضائعة بين الأدغال، يواجه كلٌّ منهم قدَره. بعضُهم يشرب بلا يتوقّف، وبعضهم يدخّن الأفيون، وآخرون ينتحرون ويستحيلون سمادًا للأرض. وفي كلّ الأحول، كلٌّ يمارسُ جنونه بطريقته. نحنُّ إلى أوروبا، ونحلمُ بالمشي مجدّدًا في شارع، وبالجلوس بين رجال بيض في غرفة مضاءة جيّدًا، جدرانها من حجر. نحلم لسنوات بذلك، وعندما يأتي الوقت الّذي يُسمح لنا فيه بإجازة، نحسُّ أنّ الخمول يمنعنا من المغادرة. نعلمُ أنّا نُسينا هنا، وأنّنا أصبحنا مجهولين مثل صَدفٍ في المحيط. صَدف يقذفه الجميع بأقدامهم! هكذا نبقى، وهكذا يصيبنا الجنون، وهكذا ننحرفُ في هذه الغابات الخانقة والنديّة. ملعون هو اليوم الّذي جئتُ فيه إلى هذه الحفرة القذرة...

لكنّ ذلك لم يكن بكامل إرادتي. كنت قد أكملت دراستي في ألمانيا، وأصبحتُ دكتورًا في الطب، بل طبيبًا جيّدًا أيضًا، وكانت لي وظيفة محترمة بمصحّة في لايبزيغ، وقد أحدثتُ ضجّة كبيرة

وقتها في أحد أعداد مجلّة «ميديزينيش بلاتّر»[1]، عن لقاح جديد كنت أوّل من استخدمهُ. بعد ذلك، جاءت قصّتي مع امرأة تعرّفت إليها في المستشفى بعد أن جُنَّ عشيقها بحبّها إلى درجة أنّهُ أشهر في وجهها مسدّسهُ وأطلق عليها الرّصاص، وبعدَ فترة صرتُ مجنونًا مثلهُ. كانت متكبّرة ولا مبالية بطريقة مستفزّة هيّجت كل الغضب الكامن في داخلي. لقد كنتُ دائمًا لعبةً في يد النساء الوقحات اللائي يمتلكن شخصيّةً قويّة، بل كان ذلك يُرضخني ويُركعني حتّى يُقصَمَ ظهري. لقد فعلتُ كلّ ما أرادَت. وأنا...

حسنا ! لماذا لا أعترف الآن بمضيّ ثمان سنوات على هذا؟ لقد أخذتُ لأجلها أموالاً من صندوق المستشفى، وعندما كُشفَ الأمرُ، اختفت الشيطانة. سدّد أحد أخوالي المبلغ، لكنّ مسيرتي المهنيّة تحطّمت.

سمعتُ بعد فترة أنّ الحكومة الهولنديّة بصدد انتداب أطبّاء قصدَ إرسالهم إلى المستعمرات، وأنّها تقدّم مع هذا العرض امتيازات عديدة، ووجدتُ في الحال أنّهُ سيكون من الجميل أن يقدّموا إلى جانب ذلك تسبقة ماليّة ! كنتُ أعرف أنّ معدّل الموت في مزارع الحمّى تلك مرتفع ثلاث مرّات مقارنة ببلدي. لكنّنا عندما نكون شبابا، نعتقد أنّ الحمّى والموت لا يمكن أن يصيبا إلّا غيرنا. وباختصار، لم يكن لديّ خيار.

---

(1) Medizinische Blätter: مجلّة طبيّة نمساويّة. (المترجم).

ذهبتُ إلى روتردام، ووقّعتُ عقْدًا بعشر سنوات. تلقّيتُ حزمةً جميلة من الأوراق النقديّة، أرسلتُ نصفها إلى خالي، بينما كان النّصف الآخر من نصيب امرأة من ذلك النوع من النّساء اللائي نلتقي بهنّ في حيّ الميناء، امرأة نشلت كلّ ما أملك لأنها ببساطة تشبه تلكَ القطّة الملعونة التي التقيتها في المستشفى.

بعدَ ذلكَ، وبلا أموال ولا ساعة ولا أوهام، تركتُ أوروبا ورائي دون أن أشعر بأيّ حزن عندما خرجنا من الميناء. جلستُ على الجسر، مثلما تجلسُ أنتَ الآن أمامي، وكما يفعلُ الآخرون، ورأيتُ ذات ليلة صليب الجنوب والنخيل، وتسارعت دقّات قلبي. إيه! كانت الغابات والعزلة ولحظات التأمّل مثلما حلمتُ بها دائما!

أوه! ليست العزلة ما سينقصني. فأنا لم أُرسَلْ إلى باتافيا أو سورابايا، إلى مدينة توجد بها كائنات بشريّة، ونوادٍ ليلية وملعب غولف، بل إلى قرية -لا يهمّ كثيرا أن أذكر اسمها- في إحدى المقاطعات الّتي تبتعدُ عن أقرب مدينةٍ يوميْن كامليْن من السفر، وهناكَ مثّلت مجموعة من الموظّفين المزعجين والخاملين إلى جانب منبوذَيْن اثنيْن كلَّ محيطي الاجتماعي، وباستثناء ذلك، لم يكن ثمّة حولي غير الغابات والأشجار والأدغال والمستنقعات.

في البداية، كان الأمر محتملاً. كرّستُ وقتي لكلّ أنواع الدّراسات. ومرّةً، عندما انكسرت ساقُ نائب المقيم العام بعد انقلاب سيّارته أثناء جولة مراقبة كان يقوم بها، قمتُ وحدي

بعمليّة جراحيّة تحدّث عنها الناسُ كثيرًا وقتها. كنت أجمعُ أنواعا من السُمّ وأسلحة قديمة يستعملها السكّان هناك. وكنتُ أشغل نفسي بمئات الأشياء الصغيرة كي أتمكن من الاستمرار. لكنّ ذلك لم يدم طويلاً، فسرعان ما نضبت كلّ الطاقة التي أتيت بها من أوروبا، وهزلتُ كثيرًا.

كانت رؤية بعض السيّاح الأوروبيّين تزعجني، فقطعت كلّ علاقاتي، وطفقتُ أشربُ بلا توقّف متقوقعًا في أحلام عزلتي. لم يكن عليّ أن أصبر سوى سنتيْن أكون بعدهما حُرًّا، وأحظى بمنحة، وأتمكّن من العودة إلى أوروبا وأنعم بحياة جديدة هناك. في الحقيقة، لم أكن أفعل شيئًا غير الانتظار. لقد كنتُ أنتظر، نائمًا في هدوء، وكنتُ سأبقى على هذه الحال أكثر لو أنّها... لو أنّها لم تأتِ».

توقّفَ الصوت وسط الظّلام. انطفأ الغليون. وخيّمَ الصّمتُ حتّى أنّي سمعتُ مجدّدًا هديرَ الماء المنكسر على صدر الباخرة ودقّات قلب المحرّك المكتومة والبعيدة. أردتُ أن أشعلَ سيجارة، لكنّي خشيتُ لهيبَ الولّاعة وانعكاسه على وجه الرّجل الغريب. لزم الصّمت. لزمَ الصّمتَ طويلا. ولم أكن أعرف إن كان قد أكملَ قصّتهُ أو أنّهُ نعس أو نام طوال لزومه صمت الأموات ذاك. رنّ جرسُ الباخرة مُحدِثًا صوتًا قاسيًا وعنيفًا. إنها الواحدة بعد منتصف الليل. نهَض فجأةً. سمعتُ مجدّدًا قرقعةَ كأسِه. كان من الواضح أنّه يبحث عن زجاجة الويسكي مُتحسّسًا الأرضية بيده. سمعتُ الصوت

الخفيف لغرنقة حلقه وهو يبتلعُ الكحول، ثمّ عاد صوتُه فجأةً، لكنّه صار أكثر توتّرًا وانفعالاً هذه المرّة:

«إذن... لحظة... نعم، كنتُ هناكَ. كنتُ هناك في حفرتي اللعينة. كنتُ هناكَ مثلَ عنكبوت في بيته، بلا حراك منذ عدّة أشهر. كان ذلكَ بعد موسم الأمطار. وطوال أسابيع وأسابيع، كان الماء يهطلُ فوق سقفي. لم يأت أحد. ولا أوروبيّ واحدٌ. كلّ يوم، كنتُ أقضّي الوقت جالسًا في بيتي مع نسائي الصُّفر وزجاجاتي من الوسكي الجيّد. لقد كنتُ وقتها في الحضيض. كنتُ مريضًا بـ«أوروبا»، وكنت كلّما قرأتُ رواية تكون شوارعها واضحة ونساؤها بيضًا، تطفقُ أصابعي مرتجفة. لا أستطيع أن أصف لك حالتي آنذاك بدقّة. كان نوعا من الأمراض الاستوائيّة. حنين محمومٌ وهذيان شرسٌ ومُنهِكٌ يجتاحُ المرء ويغيّبه عن الوعي أحيانًا.

وذات يوم، بينما كنت في ذلك الوضع، مستلقيًا، على ما أذكر، مسافرًا في أحلامي، سمعتُ فجأةً دقّاتٍ على الباب. كان غلامي في الخارج، إلى جانب إحدى النّساء. دخلا وقد اتّسعت عيناهما من الدهشة وحاولا أن يفسّرا لي الأمر بحركاتهما. ثمة امرأة في الخارج، سيّدة، امرأة بيضاء! نهضتُ بسرعة. لم أسمع صوت سيّارة أو عربة. امرأة بيضاء هنا، في هذه الصحراء؟

هممتُ بالنزول على الدّرج، لكنّني عدتُ إلى الوراء. نظرتُ في المرآة، وحاولتُ على عجل ترتيب مظهري. كنتُ متوتّرًا وقلقًا

كما لو كنتُ منزعجًا من شعورٍ مباغتٍ وغير مريح، ذلك أنّي لم أكن أعرف أحدًا على الأرض يأتي إليّ من باب الصّداقة. ونزلتُ أخيرًا.

في الرّواق، كانت السيّدة واقفة في انتظاري. تقدّمتْ إليّ مسرعة. غطّى وجهها وشاح سميك يبدو أنّها أخذته من السائق الّذي اصطحبها. أردتُ تحيّتها، لكنّها سبقتني إلى ذلكَ بحيويّة: «صباح الخير، دكتور» قالت بانجليزية رشيقة (أو بالأحرى رشيقة جدًّا كما لو أنّها متدرّبة على قولها) «أرجو المعذرة، إن كنتُ أفاجئك بمجيئي. لقد مررنا بالمحطّة، وأوقفنا سيّارتنا هناك.» لماذا إذن لم تأت بسيّارتها إلى هنا؟ اجتاح السؤال ذهني مثل صاعقة. «وتذكّرتُ أنّكَ تسكنُ هنا. سمعتُ الكثيرين يتحدّثون عنك. لقد قمتَ بمعجزة حقيقيّة مع نائب المقيم العام، ساقهُ All right، وهو يلعب الغولف بأريحيّة كما في السابق. آه ! نعم، مازال الجميع يتحدّث عنكَ في سهراتنا، وربّما نتقاسمُ إبداءَ استيائنا في حال أتيتَ معنا أيّها السُّورجِنْ surgeon[1]، ويمكنُ لهذيْن أن يأتيا أيضًا. حقًّا، لماذا لا نراك هناك مُطلقًا؟ إنّكَ حقًّا تحيا حياة متصوّفٍ...

كانت تواصل ثرثرتها بطلاقة متزايدة دون أن تترك لي الفرصة لقول كلمة واحدة، وكان في استفاضتها اللغويّة شيء من

(1) كلمات إنجليزيّة (All right, down, yes sir, surgeon وغيرها) حافظ زفايغ على إيرادها في النصّ الألماني لإضفاء طابع محلّي على روايته. (المترجم).

العصبيّة والتوتّر، فأحسستُ بانزعاج وقلق كبيرين. لماذا تتكلّمُ كثيرًا؟ قلتُ في نفسي؟ لماذا لا تعرّفُ بنفسها؟ ولماذا لا تنزعُ وشاحها؟ هل تكون مصابة بحُمّى؟ هل هي مريضة؟ هل هي مجنونة؟

كان توتّري في تصاعد مستمرّ، ذلك أنّي أحسستُ بسخافةِ أن أبقى هكذا، واقفًا، أمامها غارقًا في وابل الكلمات المتدفّق من فمها. وأخيرًا، صمتَتْ قليلاً فتمكّنتُ من دعوتها إلى الصّعود. أشارت إلى غلامها بأن يبقى خلفها، وتبعتني إلى الدّرج.

«المكانُ جميلٌ هنا. قالت وهي تتفحّصُ غرفتي. أوه! كتبٌ جميلة! أرغب في قراءتها كلّها!» توجّهَتْ إلى الرفّ ومرّرَتْ ناظريْها على عناوين الكتب، ولأوّل مرّة منذ جاءت صمتَتْ دقيقةً كاملة.

«هل تريدين بعض الشاي؟» سألتُ.

«لا. شكرًا دكتور». قالت دون أن تلتفت، مواصلةً تفحّص عناوين الكتب. «يتوجّبُ علينا الذّهاب فورًا. ليس لديّ وقت أضيّعه. لم نقُمْ إلّا بجولة صغيرة. آه! لديكَ فلوبير أيضًا! أرغب كثيرًا في قراءته... رائعة.. حقًّا رائعة هذه التربية الروحيّة.. أرى أنّكَ تقرأ بالفرنسيّة أيضًا.. يا للمعارف الّتي تملكها !... نعم، الألمان يتعلّمون كلّ شيء في المدرسة.. إنّهُ لمن الرّائع أن نعرف كثيرًا من اللّغات... إنّ نائب المقيم العام لا يحلفُ إلاّ بحياتك، ويقول دائما إنّكَ الوحيد الّذي يمكن أن يثق به في الجراحة... ثُمّ إنّ جرّاحنا هناك لم يعد قادرًا على أداء مهامه... علاوة

على ذلك، ولتعلم هذا (واصلت دون أن تلتفت إليّ) تبادرت إلى ذهني اليوم فكرة أن أزوركَ، وبما أنّنا مررنا أمام بيتكَ على وجه التحديد، فكّرتُ في... لكن، ربّما لديك الكثير لتنشغل به الآن... سيكون من الأفضل أن أعود مرّة أخرى.»

«أنت تكشفين لعبتكِ أخيرًا» فكّرتُ بسرعة، لكنّي لم أُتح لها رؤية ما فكّرت فيه، وأعلمتها بأنّهُ سيكون من المشرّف لي دائما أن أكون في خدمتها، الآن أو في أيّ وقت تريد.

«لا شيء خطير» قالت ملتفتةً نصفَ التفاتة وهي تتصفّحُ كتابًا أخذتْهُ من الرفّ. «لا شيء خطير... تفاهات... أمور نساء... دُوارٌ ووهنٌ. لقد أُغمي عليّ هذا الصباح في منعطف حادّ وسقطتُ فجأة شبه ميّتة... وكان على الغلام أنْ يوقظني، وأن يبحث عن الماء... ربّما كان ذلك بسبب السرعة الفائقة التي كان يقود بها السائقُ... هل تعتقد ذلك دكتور؟»

«لا أستطيع أن أحكم بعد. هل سبق وأحسسْتِ بوهن مماثل؟»

«لا... أعني، نعم... في الفترة الأخيرة نعم... في كلّ الأيام الأخيرة... كنتُ أشعر بذلك... وهن وغثيان مستمرّ.»

ها هيَ تتسمّرُ مُجدّدًا أمام المكتبة، مُرجعة كتابًا وآخذة آخر تتصفّحه. غريبٌ أمرُها. لماذا تقلّب الصّفحات هكذا، بكلّ توتّر؟ لماذا لا ترفع عينيها من تحت وشاحها؟ تعمّدتُ ألاّ أقول شيئًا. أعجبني أن أتركها معلّقة تنتظرُ. وفي النهاية شرعَتْ تتكلّم

من جديد بطريقتها المطنبة واللامبالية:

- أليس كذلك دكتور، ليس ثمّة شيء مخيف؟ لا شيء من الأمراض الاستوائيّة... لا شيء خطير...

- عليّ أن أرى أوّلاً إن كانت حرارتك مرتفعة. هل أستطيع فحصَ نبضك؟...

توجّهتُ إليها، لكنّها ابتعدت بخفّة.

- لا.. لا، ليست لديّ حُمّى... أنا متأكّدة من ذلك.. متأكّدة.. كلّ يوم أقيس حرارة جسمي منذ... منذ أحسستُ بهذا الوهن.. لم تكن لديّ حُمّى مطلقا، وحرارتي مثاليّة، تشير إبرة المحرار دائما إلى 36.4 درجة. معدتي بخير أيضًا.

تردّدتُ برهة. كان الشّعور بالريبة ينخرُ ذهني. أحسستُ بأنّ هذه المرأة تريد أن تطلب منّي شيئًا. فالمرء لا يتكبّدُ عناء المجيء إلى البريّة كي يتحدّث عن فلوبير. تركتها تنتظر دقيقة، ثمّ أخرى.

- العفو. قلتُ لها صراحة. هل أستطيع أن أطرح عليك بعض الأسئلة بحُريّة؟

- «بالتأكيد، دكتور. أنتَ طبيب» أجابت بعدَ أن استدارت، وأخذت تلعب بالكتب مجدّدًا.

- هل لديك أطفال؟

- نعم، ولد.

- وهل سبق و... شعرت... أقصد... هل شعرت باضطرابات مشابهة؟

- نعم.

صار صوتُها مختلفًا تمامًا، واضحًا، وواثقًا، ولم يعد مُترثرًا ولا مُتوتّرًا. «وهل من المحتمل أن... المعذرة على هذا السؤال... أن تكوني في وضعيّة مشابهة؟»

- نعم.

سقطت الكلمة من شفتيها حادّةً وقاطعة مثل سكّين. تجمّدت ملامحُ وجهِها، وتمنيّتُ لو تبتعد عنّي.

- ربّما سيكون من الأفضل، سيّدتي، أن نقوم بفحص عامّ... هل تسمحين لي بدعوتك إلى تكبُّد عناء الذهاب إلى الغرفة المجاورة؟

التفتَتْ إليّ فجأةً. أحسستُ من خلال وشاحها بنظرة باردة وحادّة تتفرّسني بقوّة. «لا... لن ينفع ذلك... أنا واثقة تمامًا من وضعي»

اضطربَ صوتهُ برهة. ولمعتْ كأسهُ المملوءة مجدّدًا وسط الظلام.

«أَنصِتْ إذن... لكن حاول أن تتمثّل ولو برهة الوضعيّة: امرأةٌ تأتي إلى شخص يتضاءلُ جسمهُ في العزلة، وهي أوّل امرأة بيضاء تدخل غرفته منذ سنوات. وفجأةً شعرتُ بوجود بشيء مّا سيّئ في غرفتي، شعرت بخطر مّا. كنتُ أحدسُ ذلك.

أحسستُ بخوف يتملّكني أمام الإصرار العنيد لهذه المرأة الّتي جاءت في البداية بثرثرتها، لتُبدي فجأة تطلّبها كما لو كانت تستلّ سكّينا. لأنّ ما تريدهُ منّي أعرفه جيّدًا، وفهمتهُ بسرعة. لم تكن المرة الأولى الّتي تطلب فيها نساء خدمات مشابهة منّي، لكنّهُنّ كُنَّ يقدّمن أنفسهنّ بطريقة مختلفة تمامًا. كُنّ يأتين خجولات أو متوسّلات، وكُنّ يقدّمن أنفسهُنَّ باكيات ومتضرّعات. لكن، هنا، ثمّة... نعم، ثمّة إصرار رجوليّ، إصرارٌ حديديّ... منذ الثانية الأولى، أحسست أنّ هذه المرأة أقوى منّي، وأنّها تستطيع بسهولة أن تفرض عليّ إرادتها... لكن... لكن... كان هنالك أيضا شيء مّا سيّئٌ في داخلي... كنتُ أشبه برجل غاضب يدافع عن نفسه، لأنّني... كما قلتُ سابقا... منذُ اللّحظات الأولى، نعم، وحتّى قبل أن أراها، أحسستُ في هذه المرأة عدوًّا.

لذتُ بالصمت في البداية. صَمَتٌّ عنادًا وحنقًا. كنتُ أحسّ بها تراقبني من تحت وشاحها، وتنظر إليّ بطريقة مستفزّة وغير قابلة للمقاومة، تريد أن تجبرني على التكلّم. لكنّها لم تتمكّن منّي بسهولة. صحيحٌ أني تكلّمتُ، لكن... بطريقة واثقة... نعم، رغم أنفي، قلّدت نبرتها المضجرة واللامبالية. تظاهرتُ بأنّني لم أفهمها، ذلك أنّي - ولا أعرف ما إذا كان باستطاعتك فهم ذلك - أردتُ إجبارها على التحدّث بوضوح، لم أرد أن أقدّمَ لها أيّ فرصة، بل... أن يُتوسَّلَ إليَّ... وبالتحديد، أن تتوسّل هي إليّ، هذه الّتي قدّمت نفسها بكثير من الغرور... وأيضًا، لأنني كنتُ أعرف أنّي لا أغضب كلّ هذا الغضب مع النّساء إلا حين

أواجَهُ بهذا البرود المتكبّر.

طفقتُ إذن أخبرها بكلمات واثقة عقيمة، أنّ وضعها الصحيّ لم يكن سيّئا، وأنّ هذه الأعراض ليست سوى جزء من سير الأشياء الطبيعي، وأنّها عكس ما تظنّ علامات صحّة جيّدة مشيرًا إلى بعض الأمثلة المشابهة التي قرأتُ عنها في بعض المجلات الطبيّة... كنت أتكلّم، أتكلّمُ بسأم وخفّة متعاملاً مع الأشياء المهمّة كما لو كانت بديهيّة، و... كنتُ أنتظر أن تقاطعني، لأني كنتُ أعرف أنّها لن تتحمّل ذلك.

قاطعتني بحركة سريعة صغيرة بيدها، وكأنّها تريد وضع حدّ لكلّ هذه التطمينات.

- ليس هذا ما يقلقني، دكتور. عندما حملتُ بطفلي الأوّل وقتها، كانت صحّتي أفضل من الآن بكثير... لكنّني الآنَ لستُ بخير، لستُ All right مطلقًا... لديّ اضطرابات في القلب.

- «آه ! اضطرابات في القلب، ردّدتُ بنبرة حائرة، يجب أن أرى ذلكَ الآن.» وقمتُ بحركة كأنّني أريد النهوض والبحث عن السمّاعة.

لكنّها أضافت فجأةً، وكان صوتُها هذه المرّة قاطعًا وواضحًا كما لو كان قادمًا من مقرّ قيادة:

- لديّ اضطرابات في القلب، دكتور. أرجو أن تصدّق ما أقوله لك. لا أريد مضيعة الوقت في الفحوصات. يبدو لي أنّك

تستطيع أن تثق فيَّ أكثر. ومن ناحيتي، على الأقل، أبديتُ بما يكفي ثقتي بك.

بدأت المعركة. كان تحديًّا معلنا، وقبلتهُ.

- تتطلّبُ الثّقةُ الصّراحةَ، الصّراحة التّامة. تكلّمي بوضوح. أنا طبيب. وقبل كلّ شيء، انزعي وشاحكِ، تفضّلي بالجلوس، واتركي الكتب ودَعْكِ من التهرّب. لا يأتي النّاسُ ملثّمين إلى الطبيب.

نظَرَتْ إليَّ في عينيّ مباشرة بكبرياء. وبعد بُرهةٍ من التردّد، جلسَتْ ثمّ نزعَتْ وشاحها. رأيتُ وجهًا شبيهًا بما كنتُ أخشاهُ، وجهًا مصقولاً، حادًّا، مُنهَكًا، وجميلاً جمالاً أبديًّا. عينان رماديّتان، مثل عيون الإنجليزيّين، يبدو فيهما كلُّ شيء هادئًا، وخلفهُما يمكنك أن تحلمَ بكلّ الأهواء.

هذا الفمُ الرّقيق المتوتّر، لا يكشفُ شيئًا من أسرارها عندما لا تريد هي ذلك. ظللنا نتبادل النظرات مدة دقيقة. لم أستطع تحمّلَ نظرتها الواثقة والمتسائلة في آن واحد، المليئة بالقسوة والبرود والحادّة بطريقة أرغمتني على تحويل ناظريّ عنها.

ظلّت تنقرُ بأصابعها على الطاولة. كانت إذن متوتّرة هي الأخرى. وفجأةً قالت بسرعة مباغتة:

- هل تعرفُ ما أنتظرهُ منك، أم لا؟

- أعتقدُ أنّني أعرفهُ، لكن من الأفضل ألاّ يكون هناك أيّ غموض. تريدين وضعَ حدّ لما أنت فيه. تريدين أن أخلّصك من هذا الوهن ومن هذا الغثيان، بالتّخلص من... بالتخلّص من سببيهما. هل هذا جيّد؟

- نعم.

سقطت الكلمة مثل ساطور.

- هل تعرفين أنّ شيئًا مثل هذا يمكن أن يكون خطيرًا... وبالنسبة إلى الطرفيْن؟

- نعم.

- وأن القانون يمنعني من فعل ذلك.

- ثمّة حالات لا يمنع فيها القانون ذلك، بل بالعكس، قد يقضي فيها بذلك.

- لكنّ هذه الحالات تتطلّب موافقة طبيّة.

- ستجدُ حلًّا لهذا. أنت طبيب.

كانت عيناها، بينما تتكلّمُ، تتفرّسان في وجهي بوضوح وثبات دون أن تَرِفّا رفّة واحدة. وأنا، وكم كنتُ ضعيفا، أرتجفُ إعجابًا أمام قدرتها الشيطانيّة وإرادتها القويّة. لكنّني لم أكن قد رضختُ بعد، ولم أرد إظهار هزيمتي أمامها. «ليس بهذه السرعة. فلأختلق بعض الصّعوبات. فلأجْبرها على التوسّل

إليّ.» انفجرت في داخلي هذه الرغبة اللذيذة.

- ليس الأمرُ مرتبطًا بإرادة الطّبيب دائمًا. لكنّني مستعدّ لذلك، مع أحد زملائي في المستشفى...

- لا أريد شيئًا من زميلك. لقد جئتُ إليكَ أنت.

- هل أستطيع أن أسألك لماذا أنا، بالتحديد؟

نظرَتْ إليّ ببرود.

- لا يوجد ما يمنعني من قول ذلك. لأنّكَ تعيشُ في عزلة، ولأنّك لا تعرفني، ولأنّكَ طبيب جيّد، ولأنـ.. - كانت المرة الأولى التي ترتبك فيها - لأنّكَ لن تبقى كثيرًا في هذا البلد، خاصّة إذا... إذا استطعتَ الاستفادة من مبلغ محترم.

جعلتني كلماتها أتجمّدُ. كنتُ مذهولاً ببرودها التّجاريّ، ودقّة حساباتها. لم تكن شفتاها إذن مغلقتين كلّ ذلك الوقت كي تتضرّعا إليّ. بالعكس ! لقد خطّطت لذلك منذ وقت طويل. كانت تراقبني منذ البداية، بهدف الانقضاض عليّ مباشرة بعدها. كنتُ أحسُّ أنّني خاضع إلى إرادتها الجهنّميّة، لكنّني دافعتُ عن نفسي بكل ما في داخلي من سخط. وأجبرتُ نفسي مرّة أخرى على البقاء إيجابيًّا بل وساخرًا أيضًا.

- وهذا المبلغ المحترم. هل... هل ستضعينهُ أنتِ على ذمّتي؟

- نعم. من أجل تعاونك، ومغادرتكَ مباشرة.

- وهل تعرفين أنّهُ يمكنني أن أفقد وظيفتي بهذه الطريقة؟

- سأعوّض لك عن ذلك.

- أنت دقيقة جدّا... لكنّني أريدُ مزيدًا من الدقّة. بكم قدّرت هذا المبلغ الّذي ستقدّمينه إليّ؟

- اثنا عشر ألف فلورين، تتسلّمها عن طريق شيك، في أمستردام.

كنتُ أرتعدُ... أرتعد غضبًا و... إعجابًا أيضًا. لقد قرأتْ حساب كلّ شيء. قدّرت المبلغ وطريقة الدّفع التي تجبرني على المغادرة. قيّمتني واشترتني دون أن تعرفني. وحدستْ إمكانية أن تعوّلَ عليّ. كنتُ أرغبُ في إهانتها... لكنّني عندما نهضتُ مرتجفًا -وكانت قد نهضت هي الأخرى- ونظرتُ تحديدًا في عينيها، أحسستُ فجأةً، وأنا أرى ذلك الفم المضموم الّذي لا يريد أن ينبس بكلمة توسّل واحدة، وتلك الجبهة الشامخة الّتي لا تقبل الانحناء... أنّ نوعًا من الرغبة العنيفة... يجتاحني. ويبدو أنّها لاحظت ذلك، لأنّها عقدت حاجبيها كما يفعل المرء عندما يريد إبعاد شخص مزعج. ولا أخفيكَ، فجأةً، صارت الكراهية بيننا واضحة. كنت أعرف أنها كانت تكرهني لأنها تحتاجُ إليّ، وكنتُ أكرهها لأنّـ... لأنّها لم ترد التوسّل إليّ. وأثناء ثانية الصّمت الواحدة تلك، كانت تعابير وجهيْنا واضحة لأوّل مرة وضوحًا تامًّا. ثمّ فجأة، تسلّلت إلى ذهني فكرة، وقلتُ لها... قلتُ لها...

«لكن انتظر. ستفهمُ على نحو سيّئ ما فعلتُه... ما قلتُه... عليّ أن

أشرحَ لك أوّلاً كيف... كيف راودتني هذه الفكرة المجنونة...»

قرقعَ الكأسُ وسطَ الظلام مجدّدًا. وصار الصوتُ أكثر حيويّة.

«ليسَ لأنني أريد أن أعتذر، أو أبرّئ نفسي، أو أبرّرَ ما فعلت... بل لأنّك لن تفهم شيئًا إن لم أفعل ذلك... لا أعرفُ إن كنتُ ما يُسمّونهُ: رجلا صالحا أم لا، لكن... لكن، أعتقد أنّني كنت في خدمة النّاس دائما. وفي حياة البؤس الّتي كنتُ أعيشها هناك، كانت بهجتي الوحيدة متمثّلةً -بفضل حفنة من المعارف المخزّنة في الدّماغ - في إمكانيّة إنقاذ حياة بعض النّاس... كما لو كنتُ أستمتع باللعب مع الله من خلال قدرتي على تغيير أقدار النّاس... حقًّا، لقد كانت أجمل الساعات التي قضيّتها هنا تلكَ التي يأتي فيها إليّ أحد المتساكنين مرتعدًا من الخوف لأنّ ساقهُ منتفخة بسبب لدغة ثعبان، وهو يصرخُ لأنّهُ لا يريدُها أن تُقطعَ، وأتمكّن بالفعل من إنقاذه دون الاحتياج إلى ذلك. لقد قمتُ ببطولات كثيرة مع نساء دمّرتهُنّ الحُمّى وأردتهُنّ طريحات الفراش. فعلتُ أيضًا ما جاءت تطلبهُ هذه الغريبة منّي، وحتّى قبل ذلك في أوروبا، هناك، في مستشفى الكليّة. لكن، في هذه الحالات، ثمّة على الأقل شعور بأنّ شخصًا مّا يحتاجُك، في هذه الحالات، تعرف أنّكَ تُنقذ أحدهم من الموت أو من اليأس. وكي أكون دقيقًا، عليكَ كي تستطيع مساعدة الآخرين أن تشعر أوّلاً أنّ الآخرين يحتاجون إليك.

لكنّ هذه المرأة -لا أعرف إن كان بمقدوري أن أصف لك ذلك

- أشعلتني غضبًا، وحيّرتني من اللحظة الأولى الّتي دخلت فيها إلى البيت كما لو كانت زائرة عاديّة، ودفعتني بغرورها إلى مقاومتها. أثارت -كيف أقول هذا؟- أثارت كلّ الأشياء المخفيّة والسيّئة في داخلي وجعلتها تخرجُ. كنتُ أجنُّ لرؤيتها تلعب دور السيّدة المحترمة (اللّايْدي)، وتُفاوض ببرودة دم وتكبّر حول قضيّة حياة أو موت... ثُمَّ، في النهاية، لا تصبحُ امرأة حاملا وهي تلعب الغولف... كنتُ أعرف... أعني كنتُ مجبرًا فجأةً على أن أتذكّر -وها هي الفكرة المجنونة- أن أتذكّر بوضوح مرعب، أنّ هذه المرأة الجليديّة الممتلئة تكبّرًا وبرودًا، والّتي كانت تقطّب حاجبيها بقوّة فوق عينيها الحادّتين بينما كنتُ أنظر إليها قلِقًا - أو في وضعية الدّفاع تقريبا - كنتُ مجبرًا على تذكّر أنّها كانت، قبل شهرين أو ثلاثة، بين ذراعيْ رجلٍ، تتلوّى في فراشه، عارية مثل بهيمة، وربّما لاهثة من اللّذة، بينما يلتصقُ جسداهما مثل شفتيْن في فم واحد. هذه هي الفكرة التي كانت تحرق رأسي بينما كانت تنظر إليّ بكل غرور وجفاف وغطرسة، كما لو كانت ضابطا إنجليزيًّا... وتواصل ذلكَ... حتّى تملّكتني الرغبة في إهانتها... ومنذ تلك اللحظة تخيّلتُ جسدها عاريًا تحت الفستان الّذي كانت تلبسهُ... منذ تلك اللحظة، لم تكن في ذهني فكرة أخرى غير الرغبة في امتلاكها، الرغبة في سماع هاتين الشفتين الحادّتين تتأوّهان، الرغبة في رؤية هذه المتغطرسة الباردة مشتعلة باللذّة، مثلما رأى الآخرُ ذلك، الآخرُ الّذي لا أعرفهُ... هذا هو... هذا هو ما أردت أن أشرحهُ لك... كانت

تلك المرة الوحيدة الّتي... فرغم وقاحتي، لم أحاول مُطلقًا أن أستغلّ موقعي لمآرب أخرى... لم يكن مجونًا، ولا شهوةً أو رغبةً جنسيّة... لا.. حقًّا لا.. لو كان الأمر كذلك لاعترفت به... كلّ ما كنتُ أريدهُ هو تحطيم كبريائها... وتمكين الرجل الّذي في داخلي من السيطرة عليها... لقد قلتُ لك سابقا... إنّه دائما ما كانت للنسّاء اللائي يملكن شخصيّات قويّة وجافّة في الظاهر سطوة عليّ، لكن هذه المرة، كانت المسألة مرتبطة بالإضافة إلى ذلك بالحياة التي كنت أعيشها طيلة سبع سنوات دون أن تكون لي امرأة واحدة بيضاء، ثمّ إنّني لم أعرف مقاومة... إنّ الفتيات هنا، بغبائهنّ وسذاجتهنّ وثرثرتهنّ، يرتعدن احترامًا عندما يأتي رجلٌ أبيض، سيّدٌ، في طلبهم... ويصبحن متواضعات، مرحبّات على الدوام، ومستعدات للقيام بأيّ شيء لخدمتك... بابتساماتهنّ الدّافئة الشبيهة بالقرقرة... وهذا التسليم والخنوع هو الّذي يقوّي شعورك باللّذة... أنت تفهمُ الآن أيّ أثر مذهل يمكن أن يحدث عندما، أرى فجأةً امرأةً تأتي إليّ ممتلئة غرورًا وكراهيّة، مرتدية ملابس تغطّي كلّ زوايا جسدها، وفي الوقت نفسه، نابضة بالألغاز، وطافحة بعشق غير بعيد... عندما تدخل امرأة مثلها بوقاحة إلى قفص رجل مثلي، متوحّش، منعزل أيّما عزلة، وجائع أيّما جوع، ومنسحب من العالم أيّما انسحاب... ولم... لم أرد إخبارك بهذا إلّا كيْ تستطيع فهم بقيّة... ما سيحدثُ بعد ذلك.. لذا حاولتُ، وأنا ممتلئٌ برغبة لا توصف ومتسّممٌ بفكرة رؤيتها عارية، سافرة ومستسلمة، حاولت أن

أبقى متماسكًا، وتظاهرتُ باللامبالاة قائلاً ببرود:

- اثنا عشر ألف فلورين؟... لا، لن أفعل ذلك مقابل هذا.

نظرَتْ إليّ، مستغربة بعض الشيء. خمّنت أنّ المال لا قيمة له طالما تستمرُّ في مقاومتي. لكنّها أضافت رغم ذلك:

- ماذا تريد إذن؟

تخلّصت من نبرتي الباردة وقلت:

- لنكشف أوراقنا. لستُ تاجرًا. لستُ صيدليَّ روميو وجوليات الّذي يبيع سُمّهُ مقابل ذهب خسيس. أنا عكس ما يكون عليه التاجر. وليس بهذه الطريقة يمكنك تحقيق ما تريدينه.

- لا ترغبُ في القيام بذلك إذن؟

- ليس مقابل المال.

خيّمَ بيننا صمت رهيب، عميقٌ أيّما عمق، حتّى أنني -ولأول مرّة- سمعتُ أنفاسها.

- ما الّذي يمكن أن ترغب فيه إذن؟

لحظتها، توقّفتُ عن كبح جماحي:

- أرغب أوّلاً أن... ألاّ تتحدّثي معي كما تتحدّثين مع بقّال، بل كما تتحدّثين مع كائن إنسانيّ. وأن تتعلّمي، عندما تحتاجين إلى المساعدة... كيف... كيف لا ترمين أموالك الخسيسة منذ البداية... وكيف تتوسّلين ذلك... من الكائن الإنسانيّ الماثل

أمامك... لأنّك كائن إنسانيّ مثله... لستُ فقط مجرّد طبيب، ولا أقضّي حياتي في «ساعات العيادة»... لديّ أيضًا ساعات أخرى أعيشها، وربّما أتيتِ اليوم في إحداها.

لزمَتْ الصّمت برهةً. ثمّ عضّتْ شفتها السفلى برقّةٍ مُرتجفةً بعضَ الشيء، وقالت بسرعة كبيرة:

- إذا توسّلتُ إليك... هل ستفعلُ ذلك؟

- ما زلت تريدين عقد صفقة. لا تريدين التوسّل إلّا بعد أن تتأكّدي من موافقتي. يجب أن تتوسّلي إليّ أوّلاً، ثمّ أجيبك...

رفعت رأسها مثل حصان جامح. نظرت إليّ في اهتياج.

- لا ! لن أتوسّل إليك. أفضّل الموت على فعل ذلك !

تملّكني غضبٌ عارم أفقدني صوابي.

- حسنًا إذن! بما أنّك لا تريدين التوسّل إليّ، أنا من سيفعلُ ذلك. ولا أعتقد أنني في حاجة إلى أن أكون أكثر دقّة. أنت تعرفين ما أريده منك. وبعد ذلك... بعد ذلك، سأساعدك.

بقيت تنظر إليّ بثبات لوهلة. ثمّ - آه ! لا أستطيع، لا أستطيع أن أقول لك كم كان ذلك مروّعا - ثمّ انبسطت ملامحُ وجهِها، ثمّ ... انفجرت ضاحكةً... ضحكتْ في وجهي باحتقارٍ لا يوصف... احتقار، كيف أقول ذلك، ساحر... أسكرني تماما... كان ذلك أشبه بانفجارٍ مباغتٍ وعنيف صادرٍ عن قوّة خارقة... ضحكة الاحتقار تلك... كانت يمكن أن تجعلني أزحفُ على

الأرض وأقبّلُ قدميها... لم يتواصل الأمر غير ثانية واحدة... كان برقيًّا، كما لو كنتُ مغيّبًا عن الوعي ثمّ نهضتُ فجأةً وسَرت النّار في جسدي... التفتَتْ إلى الجهة الأخرى وتوجّهَتْ إلى باب الغرفة مسرعة.

ودون أن أشعر، أردتُ أن أتبعها... كي أعتذر منها... كي أتوسّل إليها... ذلك أني أحسستُ بأنّ كلّ القوة الكامنة في داخلي تخور تماما... لكنّها التفتَتْ إليّ مرّةً أخيرة وقالت، أو بالأحرى أمرَت:

- لا تحاول أن تلاحقني، أو تهتمّ لأمري. ستندم على ذلك.

واصطفق الباب وراءها».

تردّد مُجدّدًا. صمتٌ مُجدّدًا. ولا شيء غير صوت البحر مُجدّدًا، كما لو كان ضوء القمر يتدفّق مع الأمواج... وأخيرًا عاد الصوت:

«اصطفق الباب فجأةً... لكنّي تسمّرتُ في مكاني بلا حركة... كما لو كنتُ منوّمًا بما قالتهُ... سمعتُ وقع قدميها وهي تنزل الدّرج، وتغلقُ الباب... سمعتُ كلّ شيء، وكانت كلّ إرادتي متعلّقة باللّحاق بها... كي... كي أذكّرها... أو أقتلها أو أخنقها.. لكن، المهم أن ألحق بها... أن ألحق بها... رغم أنّي لم أستطع ذلك... كانت أعضائي مشلولة كما لو كنت مصابًا بصعقة كهربائيّة... لقد كنت مُدمّرًا، مدمّرًا حدّ النخاع ببهاء نظرتها الحادّة تلك... أعرف أنّها ليست أشياء قابلة لأن تفسّر

أو تُروى... وقد يبدو ذلك سخيفًا، لكنّني بقيت في مكاني، بلا حركة... واحتجتُ بعض الدّقائق، خمس دقائق ربّما، أو ربّما عشر دقائق، قبل أن أتمكّن من وضع قدم أمام الأخرى...

لكن، ما إن عدتُ إلى الحركة، حتّى أحسستُ أنني ممتلئ حماسًا وسرعة... وفي رمشة عين، نزلتُ الدّرجَ... لم تستطع أن تسلك إلّا الطريق المؤدية إلى المساكن الإداريّة... أسرعتُ إلى البهو لجلب درّاجتي. وعندما خرجتُ، وجدتُ أني نسيتُ المفتاح، حطّمتُ مكبحَ الخيزران الّذي كان يغلقها، ورميتهُ في الهواء فأحدث فرقعة خفيفة... امتطيت الدرّاجة... واقتفيتُ أثرها... يجب أن... يجب أن أصل إليها قبل أن تصل إلى السيّارة... يجب أن أتكلّم معها.

كان غبار الطريق يتناثر حولي... لحظتها فقط، انتبهتُ إلى الوقت الطويل الّذي مضى عليّ وأنا في غرفتي العالية تلك بلا حراك... وفجأة، لمحتها في المنعطف المؤدّي إلى الأدغال، مباشرة قبل المساكن، مهرولة برفقة غلامها. لكن من المؤكّد أنها رأتني أيضا، لأنها التفتت إلى الغلام تكلّمهُ، فتخلّف عنها قليلاً بينما واصلت السير وحدها. ماذا أرادت أن تفعل؟ لماذا تريد البقاء وحدها؟... تراها تريد التكلّم معي ولا تريده أن يسمعنا؟ كنتُ في غضب شديد أقود الدرّاجة بأقصى سرعة ممكنة... لم أعد أرى شيئًا.. وفجأة أحسست بشيء يعترض طريقي... كان الغلام... وكان قريبا إلى درجةٍ لم تسمح لي بالابتعاد عنه... ارتمطتُ به

وسقطتُ من فوق الدرّاجة مرميًّا على الأرض...

نهضتُ وفمي مليء بالشتائم... ودون أن أشعر، رفعتُ قبضتي كي ألكم هذا الحمار، لكنّه ابتعد عنّي... أخذتُ الدرّاجة وركبت مجدّدًا، لكنّ المهرّج الصغير، وقف أمامي، مُمسكًا العجلة وصارخًا بإنجليزيّته البائسة:

«يو ريماين هير ! توقّف حيثُ أنت»

أنتَ لم تعش في هذه المناطق الاستوائيّة... ولا تعرف حجم الإهانة الحاصلة عندما يوقف وضيعٌ من هؤلاء الصُّفْرِ درّاجةَ رجلٍ أبيض، درّاجة «سيّد»، ويأمرهُ، يأمرُ هذا «السيّد» بأن يبقى في مكانه. للإجابة عن كلّ هذا، لكمتهُ على وجهه.. سقط على الأرض، لكنّهُ بقي متمسّكًا بعجلة الدرّاجة. اتّسعت عيناه الكبيرتان والخائفتان، وبدتا مرعوبتين رعب العبيد... لكنّهُ أمسك بالمقود بثبات جهنّمي... «توقّف حيثُ أنت»! غمغم مرّةً ثانية. من حسن الحظّ، لم يكن معي مسدّسي وقتها، وإلا لكنت قتلته. «ابتعد أيها الوغد !» قلت. كان ينظر إليّ بكلّ ذلّ، لكنّهُ لم يفلت المقود. ضربتهُ مجدّدًا على رأسه، ولكن دون جدوى. صرتُ مسعورًا من الغضب... وإذْ رأيتُ أنّها ابتعدت كثيرًا، وأنّني قد أضيّعها وجّهتُ إليه ضربة ملاكم حقيقيّة تحت ذقنه... حتّى كاد يفقدُ وعيهُ... عدتُ إلى الدّراجة... لكنّني توقّفت بمجرّد أن عاودت الركوب... لقد اعوجّت العجلة أثناء عراكي مع الغلام... حاولت تقويمها بيديّ المحمومتين...

ولكن بلا جدوى... رميتُ الدرّاجة جانبًا قرب ذلك الوغد الّذي نهض داميا مبتعدا عن طريقي... ثمّ - لا، لا يمكنك أن تتصوّر كم كان ذلك سخيفا، في عيون النّاس هناك، عندما يرون أوروبيًّا... لكنّني لم أكن أعي ما أفعل، كلّ ما كنتُ أفكّر فيه، هو أن ألحق بها وأُدركها... وبدأت أركض، أركضُ مثل مجنون، على امتداد الطّريق مارًّا بأكواخ الأوغاد الصُّفر الّذين أخذوا يتهامسون مستغربين من رؤية رجل أبيض يركض: «هذا سيّد، هذا طبيب».

وصلتُ إلى المساكن وأنا أتصبّبُ عرقًا... وكان أوّل سؤال طرَحْتُه: «أين هي السيّارة...؟» لقد انطلقت قبل قليل... النّاسُ ينظرون إليّ باستغراب كبير.. من المؤكّد أنّهم اعتقدوا أنّي فقدتُ الصواب، لرؤيتي هكذا مبتلاً ومتّسخًا وصارخًا بالسؤال قبل أن أتوقّف حتّى... هناك، في آخر الطريق، لمحتُ تصاعد دخان السيارة... لقد نجحَتْ... نجحَتْ كما يجب أن ينجح كلّ شيء أمام صلابتها وصلابة حساباتها الدقيقة...

لكن الهروب لن ينفعها... في المناطق الاستوائيّة، لا يمكن إخفاء شيء عن الأوروبيّين... فكلّ واحد يعرف الآخر، وكلّ شيء يمكن أن يتحوّل إلى حدث مهمّ... لم يبق سائقها في مكتب حاكم المنطقة ساعةً كاملة بلا سبب... وفي غضون دقائق عرفت كلّ شيء... عرفتُ من تكون... وعرفتُ أنّها تعيش هناك... في العاصمة كما يقولون... على بعد ثمان ساعات من طريق السكك

الحديدية هنا... وأنها... كما يقولون، زوجة رجل أعمال كبير، وأنّها ثريّة جدّا ومن علية القوم، وأنّها إنجليزية... أعرف الآن أنّ زوجها في أمريكا منذ خمسة أشهر، وأنه سيعود في الأيام القليلة القادمة ليأخذها معه إلى أوروبا...

بينما كانت هي بلا شكّ – آه من هذه الفكرة الّتي تحرق أحشائي مثل سُمّ – حاملاً منذ شهرين أو ثلاثة أشهر على أقصى تقدير...

استطعتُ إلى حدّ الآن أن أفهِمَكَ كلّ شيء... وربّما يرجعُ ذلك ببساطة إلى أنّني كنت قادرًا، إلى حدود تلك اللحظة، على استيعاب ما أنا فيه، وباعتباري طبيبًا، دائما ما كنتُ أقيّمُ حالتي. لكن بداية من تلك اللحظة، أحسست كما لو أنّني مصاب بالحُمّى... وفقدتُ كلّ السّيطرة على ذاتي... أو بالأحرى، كنت واعيًا بكلّ ما أفعله وبأنّهُ بلا معنى، لكن دون أن تكون لي أيّ سلطة على ذاتي... ولم أعد أفهمُ ما أريدهُ بالضبط... لم أكن أفعلُ شيئًا غير الرّكض إلى الأمام، مهووسًا بهدفي... آه.. انتظر، ربّما أستطيع أن أشرح لك هذا أيضا... هل تعرف ما هو الـ«آموك»؟

- آموك؟... إذا لم تخُنّي ذاكرتي... نوع من السُّكْر لدى الماليزيّين...

- إنّهُ أكثر من السُّكْر... إنّهُ نوع من الجنون، نوع من السُّعار البشريّ... نوبةٌ مباغتة من التوحّد القاتل لا يمكن مقارنتها بأيّ درجة من السُّكْر الّتي يؤدّي إليها تناول الكحول... لقد درستُ بنفسي في فترة إقامتي هناك بعض الحالات –وغالبًا

ما يكون المرء متبصّرًا وإيجابيّا عندما يتعلّق الأمر بالآخرين- لكن، دون أن أستطيع يومًا تحديد سرّ هذه الحالة المخيف... من المؤكّد أنّها مرتبطة بشكل مّا، بالطّقس وبذاك المناخ الخانق الّذي يضغط على الأعصاب مثل عاصفة، حتّى تنفجر... إذن، الـ«آموك»... نعم، الـ«آموك» هو الآتي: ماليزيٌّ. رجل مّا شجاع ووديع أيّما وداعة، جالسٌ ويحتسي بهدوء مشروبه السّحريّ... إنّهُ هنا، جامدٌ في مكانه، يجلسُ لا مباليا وبلا طاقة... تمامًا مثلما كنتُ جالسًا في غرفتي... وفجأة، يثبُ، يأخذُ خنجرهُ، ويهرولُ إلى الطّريق... ويركضُ إلى الأمام مباشرةً، إلى الأمام دائمًا، دون أن يعرف إلى أين... وكلّما اعترضهُ في طريقه شيء، بشرٌ أو حيوانات، أخرجَ الـ«كْريسْ» وقتلهُ.. تجعلهُ رائحة الدّماء أكثر وحشيّة... يمتلئ فمهُ لعابًا بينما يركضُ، ويتناثر رذاذُ بُصاقه، يزمجرُ مثل مسكون... ولكنّهُ يواصل الرّكض، يركض ويركضُ دون أن يلتفتَ إلى اليمين أو إلى الشمال، دون أن يفعل شيئًا آخر غير الرّكض والصراخ الحادّ، منتصرًا في سباقه المضني، ومواصلاً إلى الأمام دائمًا، شاهرًا خنجرهُ الّذي ينزُّ دمًا... يعرفُ أهلُ القرية أنّهُ لا توجدُ أيّ قوة قادرة على إيقافه، لذلكَ كلّما رأوا أحدَهم قادمًا، كانوا يصرخون بكلّ ما يملكون من قوّة منذرين النّاس: «آموك ! آموك !...»، ويهرب الجميع... لكنهُ لا يسمعهم، ويواصل ركضه. يركضُ دون أن يسمع شيئًا، يركض دون أن يرى شيئًا، يذبحُ كلّ ما يعترضه... إلى أن يُصرعَ كما لو كان كلبًا

مسعورًا منهارًا ومزبدًا لحظة نحبه...

ذات يوم، رأيت ذلك من نافذة غرفتي... كان المشهد مروِّعًا... وبما أنّني رأيتهُ، أستطيع أن أفهم الوضع الّذي كنت فيه في ذلك الوقت... لأنّهُ حصل معي على ذلك النحو، على ذلك النحو بالضبط، بتلك النظرة المروّعة المتّجهة إلى الأمام، دون رؤية شيء على اليمين أو الشمال، تحت سطوة ذاك الجنون، كنت ألحقُ بتلك المرأة... لم أعد أعرف ماذا أفعل، كلّ شيء كان يسير بعنف وبسرعة رهيبة... بعد عشر دقائق... لا خمس... لا دقيقتين... عرفتُ كلّ شيء عنها: اسمها، ومكان إقامتها، ووضعيّتها، ورجعتُ إلى البيت بسرعة رهيبة ممتطيًا درّاجةً اقترضتها على عجل. رميتُ بذلةً في حقيبة، وأخذتُ بعض الأموال، وتوجّهتُ في سيّارة إلى محطّة السكك الحديدية... ذهبتُ دون إعلام رئيس المقاطعة بذلك لتعويضي أثناء غيابي، تاركًا كلّ شيء على حاله بما في ذلك بيتي الّذي بقي مفتوحا لمن هبّ ودبّ. سكّان الحيّ حولي، والنساء يسألنني مستغربات، بينما أواصل طريقي في صمتٍ غير ملتفت إلى الوراء... توجّهتُ إلى المحطة وصعدتُ في أوّل قطار إلى المدينة... وباختصار، بعد ساعة واحدة من دخول هذه المرأة إلى بيتي، ألقيتُ بكلّ حياتي إلى المجهول مرتميًا في الفراغ، تماما مثل الـ«آمُوكْ»...

كنتُ أجري إلى الأمام، ورأسي تسبقني... في السادسة مساءً وصلتُ... في السادسة وعشر دقائق وجدتُ نفسي أمام بيتها

مُعرّفًا الخدمَ بنفسي... لقد كانت، ويمكنك أن تفهم هذا، الحركة الأكثر عبثيّةً، والأكثر غباءً في ما يمكن أن أرتكبه... لكن الـ«آموك» يركضُ، نظرته فارغة، لا يعرفُ إلى أين يمضي... في غضون دقائق، عاد الغلام... وقال بتأدّب وبرود إنّ سيّدتهُ ليست بخير وإنّها لا تستطيع استقباله...

خرجتُ مترنّحًا... بقيتُ ساعة كاملة أدور حول المنزل وقد تملّكني أملٌ عبثيٌّ في أن تخرج باحثةً عنّي... ثمَّ أخذتُ غرفةً في نزل الشاطئ، وأصعدتُ معي زجاجتيْ ويسكي... إلى جانب جرعةٍ مضاعفة من الفيرونال كي تساعدني على النوم... وأخيرًا نمتُ، وكان نومي القلِق والمضطرب ذاك، الاستراحةَ الوحيدة التي حظيت بها أثناء هذا السّباق بين الحياة والموت.»

دقّ جرسُ السفينة، دقّتيْن ممتلئتيْن تمدّدت ذبذباتها المتردّدة إلى طبقة الهواء السميكة الجامدة، ثمّ انعكست على العارضة الخشبية لتختلط بالهدير الخفيف والمتواصل المصاحب لهذا الخطاب العاشق. وكما لو كان مرتعدًا ومرعوبًا، لزم الرّجل الجالس في الظلام أمامي الصّمت. وسمعتُ مجدّدًا يدهُ تتحسّسُ الأرضيّة باحثة عن الزجاجة، وتكرّر الصوت الخفيف لحلقه وهو يبتلعُ الويسكي. ثمّ كما لو هدأ روعهُ، استأنف بصوتٍ أكثر حزمًا:

«إنّهُ لمن الصّعب عليّ أن أحدّثك عمّا تلى ذلك. أعتقد اليوم أنّي كنتُ مصابًا بحُمّى، وعلى كلّ حال، وجدتُ نفسي في حالة من الانفعال الشّديد القريب من الجنون، كنتُ مسعورًا كما

قلتُ لك. لكن لا تنسَ أنّي وصلتُ مساء الثلاثاء، وأنّ زوجها -علمتُ بذلك في الأثناء- سيرجعُ من يوكوهاما في قارب «بي آند أو» يومَ السّبت. ولم يكن قد بقي لي إذن سوى ثلاثة أيّام، ثلاثة أيام بائسة لأخذ قرار وإنقاذها. حاول أن تفهم هذا الأمر جيّدًا: كنتُ أعرفُ أنّ مساعدتي المباشرة لها كانت ضرورية، ولم أتمكّن من الحديث معها. وزادت الحاجة إلى الاعتذار عن تصرّفي السخيف وجنوني المروّع من توتّري. كنتُ أعي أهميّة كلّ لحظة تمرّ، فهي قضيّة حياة أو موت بالنسبة إليها، ولم تكن لديّ أيّ إمكانيّة للاقتراب منها أو همس كلمة في أذنها أو القيام بإشارة، فقط لأنّ تصرّفي الأخرق والعبثيّ قد روّعها. كان الأمرُ... نعم، انتظر... كان الأمرُ كما لو كنتَ تلاحق شخصا مّا لتنبّههُ من مجرم سيقتله، بينما يعتبرك هذا الشخص، أنت نفسك، مجرمًا يركض خاسرًا كلّ شيء... لم تكن ترى فيّ غير مسعور يلاحقها بهدف إهانتها... لكنّني... وهنا العبث الفظيع... لم أكن أفكّر في كلّ هذا... لأنّني كنتُ محطّمًا تمامًا، ولم أرد غير مساعدتها وخدمتها... وكنتُ مستعدًّا لارتكاب جريمة أو قتل أحدهم مقابل التمكّن من مساعدتها... لكنّها لم تفهم ذلك... عندما نهضتُ في الصباح مبكّرًا، ذهبتُ إلى بيتها راكضًا. كان الغلام، الغلام نفسه الّذي وجّهتُ إلى وجهه قبضتي، أمام البيت. وعندما لمحني من بعيد – لا بُدّ أنّهُ كان ينتظرني – دخل مسرعًا. ربّما ليُعلم سرًّا بقدومي... ربّما... آه ! كم يوجعني الآن هذا الشكّ اللعين... ربّما جهّزوا كلّ شيء لاستقبالي... لكنّني

في تلك اللحظة، عندما رأيتُ الغلام تذكّرتُ العار الّذي ألحقتهُ بنفسي عندما تصرّفت بتلك الطريقة، ولم أتجرّأ على الدخول مجدّدًا... كانتا ركبتاي ترتجفان. وما إن وصلتُ أمام العتبة، حتّى استدرتُ وغادرتُ مرّة أخرى... غادرتُ في الوقت الّذي كانت تنتظرني فيه ربّما، متعذّبة مثلما أتعذّب.

والآن، لم أعد أعرفُ ما أفعل في هذه المدينة الغريبة التي تحرق أرضيّتها قدميّ مثل نار ملتهبة... فجأة، جاءتني فكرة: أخذتُ سيّارةً وذهبتُ إلى نائب المقيم، ذاك الرّجل الّذي عالجته من مدّة غير طويلة في محطّتي. قدّمتُ نفسي. من المؤكّد أنّ مظهري كان يوحي بشيء من الغرابة، ذلك أنّهُ نظر إليّ نظرة خائفة في البداية، ثمّ أبدى بتأدّب نوعًا من القلق... ربّما تعرّف على المسعور الّذي كنتهُ... قلتُ له، وقد قرّرتُ ذلك فجأة، إنّي أتيت كي أطلب منهُ تسميتي في المدينة، وإنّي لم أعد قادرًا على العيش أكثر هناك، في مكاني ذاك... وإنّي أحتاجُ إلى نقلةٍ فوريّةٍ وعاجلة... لا أستطيع أن أصف لك الطريقة الّتي نظر بها إليّ... كانت أشبه بالطريقة التي ينظر بها الطبيب إلى مريض... «إنّهُ انهيار عصبيّ حاد، طبيبنا العزيز». قال، ثمّ أضاف بطريقة فهمتها جيّدًا، «سوفَ نُصلح الأمر، لكن عليك أن تنتظر قليلاً... لِنَقُلْ أربعة أسابيع... يجب في البداية أن نجد من يعوّضك». «لا أستطيع الانتظار، ولو يوما واحدًا». أجبتهُ. فبدت على وجهه نظرة الاستغراب تلك مجدّدًا. «يجب ذلك دكتور. قال بصرامة. مستحيل أن نترك المحطّة بلا طبيب. لكن أعدك بأني سأفعل كلّ ما يلزم، بدايةً من اليوم.»

بقيتُ في مكاني، وأسناني تصطكّ، ولأوّل مرّة وعيتُ بوضوح أني رجل مُباعٌ، ومجرّد عبد. وما كدتُ أتأهّب لتحدّيه، حتّى أضاف بحذر: «أنتَ محروم من الحياة الاجتماعيّة، وهذه العزلة تتحوّل مع الوقت إلى مرض. إنّنا مستغربون جميعا هنا لعدم قدومك إلى المدينة، وعدم أخذك لأيّ إجازةٍ مطلقًا. أنت تحتاجُ إلى الاندماج وإلى الترفيه. تعال إذن هذه الليلة، سيُقام حفلٌ عندَ محافظ المدينة، وسيأتي كلّ أعضاء المستعمرة، والكثير منهم يرغبُ في معرفتك، وقد سألوا عنكَ مرارًا، وتمنّوا رؤيتك هنا.

فتحت لي كلماته الأخيرة أفقًا جديدًا. لقد سألوا عنّي. هل تكون هي؟ تحوّلتُ فجأةً إلى إنسان آخر. شكرتهُ بكلّ أدب على دعوته، وأكّدتُ له أنّي لن أتأخّر عن الموعد. وفعلاً، ذهبتُ في الوقت المحدّد، بل قبله بقليل. هل عليّ أن أقول لك إنّ نفاد صبري جعلني أوّلَ من يدخلُ قاعة القصر الحكوميّ الكبيرة... بقيتُ هناك، صامتًا ومحاطًا بالخدم الصُّفر الّذين كانوا يذهبون ويجيئون بسرعة متمايلين على أقدامهم الحافية يتهامسون -كما تخيّلتُ ذلك في ارتباكي- ساخرين منّي وراء ظهري. طوال ربع ساعة، كنتُ الأوروبيّ الوحيد وسطَ كلّ هذه التحضيرات السريّة، وحيدًا إلى درجةٍ سمعتُ فيها تكتكات السّاعة الخارجة من جيب معطفي. أخيرًا، دخل بعض موظّفي الحكومة مع عائلاتهم، ثمّ جاء المحافظ أيضًا، وخاض معي محادثة طويلة أجبتهُ فيها بكلّ أريحيّة، وعلى ذكر ذلك، أعتقدُ أنّ هدوئي استمرّ إلى أن... إلى أن فقدتُ فجأةً، وبعصبيّة غامضة، كلّ

لباقتي وذكائي وبدأتُ أتأتِئُ. ورغم أنّي كنتُ أعطي بظهري إلى مدخل القاعة، فقد أحسستُ بغتة أنّها دخلت وأنّها موجودة في مكان مّا. ولا أستطيع أن أصف لك كم زعزعني يقيني المباغت من وجودها. لكن، بينما كنت مستغرقًا في الحديث مع المحافظ، حتّى تناهت كلماتها إلى مسمعي. أحسستُ بوجودها في مكان مّا ورائي. ومن حسن الحظّ أنّ مخاطبي أنهى محادثتنا، وإلّا لكنتُ التفتُّ فجأةً لا مباليا به، بعد أن أصبحت كلّ أعصابي لعبةً في يد هذا الانجذاب الغامض، وهذه الرغبة العارمة في رؤيتها أخيرًا. وذلك ما حدث فعلاً، فبمجرّد أن التفتُّ حتّى رأيتها في نفس المكان الّذي توقّعت أن تكون به. كانت تتحدّث وسط مجموعة بفستانٍ رقصٍ أصفر، يكشف كتفيها بخطّ رفيع كما لو كانا بُرجيْن رقيقين من العاج. وكانت تضحك رغم مسحة التوتّر التي بدَتْ لي في ملامحها. اقتربتُ منها. كانت لا تستطيع رؤيتي أو لا تريد رؤيتي. راقبت ابتسامتها الساحرة والجميلة التي كانت تحرّك شفتيها الرقيقتين حركة خفيفة. وفقدتُ صوابي مجدّدًا، ذلك أنّي... ذلكَ أنّي كنتُ أعرف، أنّ ابتسامها تلك لم تكن غيرَ زيف، وسواء كان ذلك فنًّا أو علما، فهو يكشف عن مقدرة مثالية على المُداراة. كنتُ أفكّر: نحنُ في يوم الثلاثاء، وسيرجع زوجها يوم السبت. كيف تستطيع أن تضحك هكذا، بكلّ... بكلّ هذه الثقة في النفس، وبكلّ هذا الهدوء، مُداعبةً طرفَ فستانها بكلّ هذه اللامبالاة عوض أن تمزّقهُ في رعب؟ وأنا... الغريب... أرتعد منذ يومين من رجوع زوجها... أنا،

الغريب، أعيش قلقَها المرعب وأشعر بخوفها إلى آخر حدّ...
بينما تذهبُ هي إلى الرّقص، وتضحك، تضحك، تضحك...

في الخلف، انطلقت الموسيقى، وبدأ الرقص. تقدّم ضابط عجوز وطلبها إلى رقصة فالس. تركت حلقة المتناقشين الّذين كانت معهم معتذرة، ومرّت بالقرب منّي ماسكة ذراع فارسها، وهما يتوجّهان إلى القاعة المجاورة. وعندما رأتني، انكمش وجهُها فجأةً بطريقة عنيفة، - لكنّ ذلك لم يدم إلاّ ثانية واحدة - ثمّ أحنت رأسها بكلّ احترام، كما نفعل عندما نلتقي بشخص عرفناه مصادفة (وقبل أن أحسم تردّدي في إلقاء التحيّة عليها) - ثمّ قالت: «مساء الخير، دكتور!» ومرّت. لا أحد يستطع اكتناه سرّ تلك النظرة الموازبة. وتغاضيت، أنا نفسي، عنها. لماذا تراها ألقت عليّ التحيّة؟... لماذا اعترفت بوجودي فجأة؟... هل كان ذلك وسيلة دفاع أو لوم، أم أنّها مجرّد محاولة للتخلّص من تفاجئها؟ لا أستطيع أن أصف لك حجم الانفعال الّذي ثمّ أحسستُ به. كلّ شيء في داخلي كان مقلوبًا رأسًا على عقب، جامدًا، وجاهزًا للانفجار، بينما كانت ترقصُ بهدوء بين ذراعي الضابط، وجهها منبسط ومبتسم كعادته. رغم ذلك، كنت أعرف أنّها... أنّها مثلي لا تفكّر في غير... غير... وأنّنا الوحيدان في ذاك المكان اللذان كانا يملكان سرًّا مروِّعًا... وكانت ترقص... وفي ثوان معدودة، زاد خوفي ورغبتي وإعجابي، من شغفي، وصار أقوى من أي وقت مضى... لا أعرف إن كان هناك أحد يراقبني، لكنني كنت متأكّدًا من أنّ هيئتي تفضحُ كلّ

ما حاولت إخفاءهُ. لم أتمكّن من توجيه عينيّ إلى شيء آخر. كان يجب... نعم كان يجب أن أنظر إليها. استجمعت كلّ قواي، وحاولت من بعيد أن أسحب القناع الّذي كان يغطّي وجهها الجامد، وأرى إن كان سيسقط في أيّ لحظة. من المؤكّد أن ثبات نظرتي قد سبّب لها شعورًا سيّئًا. لأنها عندما مرّت بجانبي صحبة مرافقها، رمقتني بنظرة حادّة وواثقة، كما لو كانت تأمرني بمغادرة المكان، وبدت على جبهتها من جديد، انكماشة الغضب الشّامخة الّتي أعرفها جيّدًا.

لكن... لكن... كما قلت لك... كنت أركض مثل مسعور، دون أن ألتفت يمنة أو يسرة. فهمتها مباشرة. كانت نظرتها تقول: «لا تجعل نفسكَ ملاحَظًا... اضبط نفسك!» كنتُ أعرفُ أنّها... كيف أقول هذا... أنّها تطلب منّي، في هذا المكان العام، إخفاء الأمر... وأحسستُ أنّها، في حال غادرتُ في تلك اللحظة، ستستقبلني بلا شك عندها في اليوم الموالي... وأنّها الآن، الآن فقط، لا تريد أن تكون معرّضة إلى تصرّفاتي الغريبة، وأنها تشكّ -وبكثير من الحكمة- في ما يمكن أن ينجرّ عن حماقتي... هل ترى... كنت أعرف كلّ شيء، وكنتُ أفهمُ ما تريد عيناها الرّماديّتان قوله... لكن... لكن كان ذلك أقوى منّي. وكان يجب أن أتحدّث معها. تقدّمتُ بسرعة متّجهًا إلى المجموعة الّتي كانت تتحدّث وسطها. التحقتُ بالحلقة بعفويّة -رغم أنّ بعضهم فقط كان يعرفني- لا لشيء إلا لأسمع صوتها. مع ذلك، كنتُ أحني رأسي بخوف، مثل كلب مروّض، كلّما باغتتني نظرة باردة

إلى درجةٍ تجعلني مجرّد حشرة تتخبّطُ في شباكها، أو مجرّد هواء خفيف يحرّكها. لكنّي لم أبرح مكاني، متعطّشًا إلى كلمة منها، ومنتظرًا إشارةً ذكيّة. كنت هناك، عيناي ثابتتان وسط جوقة المتحدّثين، جامدًا في مكاني. وتواصل ذلك، ما دام لم يتوجّه إليّ بالكلام أيّ واحد منهم، ولا بدّ أن وجودي على هذا النحو السخيف قد أزعجها.

لا أعرف كم من الوقت بقيتُ على تلك الحال... أزلاً كاملاً، ربّما... لأني لم أستطع انتشال نفسي من رغبتي العنيفة في البقاء. وجعلني سُعاري المستمرّ مشلولاً... لكنها لم تستطع تحمّل ذلك أكثر. وفجأةً، التفتَتْ إلى المحيطين بها بخفّة رائعة وقالت: «أنا متعبة بعض الشيء... سأنام مبكّرًا هذه الليلة... تصبحون على خير!» مرّت بقربي مُوجِّهَةً برأسها تحيّةً باردة... رأيتُ مجدّدًا انكماشة جبهتها، ثمّ لا شيء غير ظهرها، ظهرها عاريا، طازجًا وأبيض... مرّت ثانية حتّى استوعبتُ أنّها غادرت... وأنّني لن أراها مجدّدًا، ولن أستطيع محادثتها هذه الليلة، الليلة الأخيرة لإنقاذها... بقيتُ لحظةً إذن، على تلك الحال بلا حركة، حتّى استوعبت الحقيقة... وبعد ذلك... بعد ذلك...

لكن انتظر... انتظر... وإلاّ لن تفهم حجم غباء ما قمت به وعبثيّته... يجب أوّلاً أن أصف لك المكان... كان ذلك في قاعة القصر الحكوميّ الكبيرة، المضاءة جيّدًا وشبه الفارغة، في هذه القاعة الضخمة... وكان أزواج الراقصين قد عادوا إلى الرقص،

والرجال إلى لعب الورق... بينما تحلّق البقيّة في الزوايا يتبادلون أطراف الحديث... كانت القاعة فارغة إذن... وكانت أيّ حركة يمكن أن تلفت الانتباه تحت كلّ تلك الأضواء... لقد كانت تشقُّ هذه القاعة الكبيرة والواسعة، بكتفيها العاليَيْن ملقية التحايا من هنا وهناك، ببهائها المترفّع عن الوصف... بهدوئها الرائع، ووثوقها الجليديّ الّذي أدهشني... لم... لم أبارح مكاني، كما قلت لك، كنتُ مثل مشلول قبل أن أستوعب أنّها بصدد المغادرة... وعندما استوعبتُ ذلك، كانت في الجهة الأخرى من القاعة، أمام الباب مباشرة... إذن... أوه ! ما زلت أحمرّ خجلاً كلّما تذكّرت ذلك... سيطرت عليّ فجأةً قوّةٌ مّا، وطفقت أركض - هل سمعتني؟ لم أكن أمشي، بل أركض - خلفها شاقًّا القاعة الّتي ضجّت بوقع حذائي. سمعتُ خطواتي. رأيت كلّ الأنظار متّجهة إليّ في استغراب... كان يمكن أن أسقط من الخجل... واصلتُ الركض بينما وعيتُ بالجنون الّذي أقترفه... لكنّني لم أعد أستطيع... لم أعد أستطيع الرجوع... وصلتُ إليها قرب الباب... استدارت إليّ... اخترقتني عيناها الرماديّتان مثل شفرة حادّة، بينما اتّسع أنفها من الغضب... كنتُ سأبدأ في التأتأة... لكنّها... في تلك اللحظة... انفجرت فجأة ضاحكة... ضحكة عالية، وطبيعيّة، وصادقة، وقالت بوضوح يسمح للجميع بسماعها: «آه ! دكتور، الآن فقط، عرفت ما يحتاجهُ ابني... حقّا غريب هو أمركم أيّها الأطبّاء !...» انفجر بعض من كانوا في الجوار ضحِكًا... فهمت الأمر... وجعلتني قدرتها المحكمة

على إبعاد الخطر أحني رأسي... وأتحسّس سترتي ثمّ أخرج من محفظتي دفترا أمزّق منه ورقة صغيرة بيضاء أخذتها بلامبالاة... بل بلا ابتسامة شكر هادئة... وغادرت... تنفّست الصعداء في البداية بعد أن رأيتُ أنّها عالجت تصرّفي المجنون وأنقذت الموقف بفضل برود دمها الكبير... لكنّني فهمتُ في نفس الوقت، أنّ كل شيء ضاع بالنسبة إليّ، وأنّ جنوني المحموم لن يستحقّ غير كراهية هذه المرأة... وأنّني أستطيع الآن أن أطرق بابها مائة مرّة، وستطردني مثل كلب.

مشيتُ مترنّحًا داخل القاعة... لاحظتُ أنّ عيون النّاس مثبّتة عليّ... لا بدّ من أني بدوت غريبًا... توجّهتُ إلى الـ«بوفيه»، شربت كأسين، ثلاثة، أربعة كؤوس من الكونياك تباعًا... لكن ذلك لم يساعدني على الارتخاء... لم تعد أعصابي قادرة على التحمّل، كما لو كانت منفلتة... ثمّ تسلّلت من باب موارب إلى الخارج، متخفيًّا مثل مجرم... لم أكن مستعدًّا لأي سبب أن أشقّ مرّة أخرى تلك القاعة، وانفجار ضحكتها ما يزال على الجدران... غادرتُ المكان... لا أعرف بالتحديد إلى أين... وفي إحدى الحانات طفقت أشرب... أشرب مثل مَن يريد أن يمحو كلّ وعيه بالشرب... لكن بلا جدوى... انغرست ضحكتها الحادّة والسيئة في داخلي... هذه الضحكة الملعونة الّتي لم أستطع تخديرها... بعد ذلك تجوّلتُ في الميناء قليلاً... كنتُ نسيتُ مسدّسي في الغرفة، وإلا لكنتُ أطلقت الرّصاص على نفسي... لم تكن في ذهني أيّ فكرة غير تلك التي عدتُ بها إلى النّزل...

مفكّرًا في الرفّ على يسار الخزانة، أين يوجد مسدّسي... لا شيء غير هذه الفكرة...

لماذا لم أطلق علي نفسي الرّصاص؟ أقسم لك أنّ ذلك لم يكن بسبب الجبن... فكم سيكون مُريحًا بالنسبة إليّ أن أضغط على ذاك الزّناد الحديديّ البارد... لكن، كيف سأشرح لك هذا؟... أحسست أنّهُ ما زال لديّ واجب لأقوم به... نعم، واجب المساعدة ذاك.. ذاك الواجب المقيت... لقد جعلتني فكرة أنّها يمكن أن تحتاجني، أنّها تحتاجني، أجنُّ... سأغادر فجر الخميس، ويوم السبت... كما أخبرتك... يوم السّبت ستأتي الباخرة، وأعرف أنّ كبرياء هذه المرأة الشامخة لن يسمح لها بأن تحيا بفضيحتها أمام النّاس. آه ! كم تعذّبتُ وأنا أفكّر في الوقت الّذي ضيّعتهُ دون تفكير، وفي تدخّلي المجنون الّذي أحبط كلّ مساعدة ممكنة... ساعات وساعات، نعم، أقسم لك، طوال ساعات، كنت أمشي جيئةً وذهابًا في غرفتي، مُعذّبًا ذهني في البحث عن طريقة أستطيع من خلالها الوصول إليها، وإصلاح كلّ شيء، وإنقاذها... كنتُ متأكّدًا من أنّها لن تسمح لي بزيارتها مجدّدًا... ظلّت ضحكتها تدمّر أعصابي، وصورة أنفها وهو يتّسع غضبًا في مخيّلتي... ساعات كاملة، نعم، ساعات كاملة، كنت أمشي بخطوات كبيرة في ثلاثة أمتار هي كلّ غرفتي الضيقّة... حتّى كان ضوء النهار... وكان الصّباحُ...

فجأة، جلستُ إلى الطاولة، أخرجتُ بعض الأوراق وبدأتُ

أكتب إليها... عن كلّ شيء... رسالة حزينة مثلما يمكن لكلب أن يفعل وهو يبكي، توسّلتها فيها بأن تغفر لي، مُطلِقًا على نفسي كُلَّ نعوت الجنون والإجرام... طالبًا منها أن تثق فيّ مجدّدًا... ومؤكّدا أنّي مستعدّ للاختفاء قريبًا من المدينة، ومن المستعمرة، ومن الوجود إن هي أرادت ذلك... عليها فقط أن تسامحني وأن تمنحني ثقتها، وأن تتيح لي فرصة مساعدتها، الآن وقد حان الوقت المناسب لذلك... كتبت عشرين صفحة محمومة على هذه الشاكلة... لا بد من أنّها كانت رسالة مجنونة، ومروّعة، ومليئة بالهذيان، لأنّي عندما نهضت من الطاولة كنتُ غارقًا في العرق... كان كلّ شيء ضبابيًّا من حولي، ووجدتُ نفسي مجبرًا على شرب كأس ماء... بعد ذلك، أردتُ أن أعيد قراءة الرّسالة، لكنّني بمجرّد أن قرأتُ كلماتها الأولى، ارتعدتُ... طويتها مرتجفًا، آخذًا ظرفا لأضعها فيه... وفي هذه اللحظة، سرت قشعريرة في جسدي. لقد جاءتني فجأة الكلمة الحقيقية، الكلمة الحاسمة. أخذتُ القلم مجدّدًا وكتبت في الصفحة الأخيرة:

«أنا أنتظر مغفرتكِ هنا، في نزل الشاطئ. إذا لم يصلني ردّك قبل السابعة، سأطلق رصاصة في رأسي.»

أخذتُ الرسالة وطلبتُ غلامًا سلّمتها له وأمرته بإيصالها فورًا.

لقد قيل كلّ شيء في النهاية - كلّ شيء!»

صوتُ كأسٍ في الجوار، وبقبقةٌ خفيفة. لقد أسقط بحركة عصبيّة زجاجة الويسكي دون أن يقصد. سمعتُ يدهُ تبحثُ عنها متحسّسةً

الأرضيّة، ثمّ تمسكها بحركة مباغتة، وعلى طول يده، رمى بها في الماء. توقّفَ صوتُه بعض الدقائق، ثمّ عاد تحت وطأة الحُمّى، أكثر انفعالاً، وأكثر اضطرابًا من أيّ وقت مضى:

«لم أعد أؤمن بالله... أعتقد أنّه لا توجد سماء ولا جحيم... وفي حال وُجد جحيم، لن يخيفني، لأنّه لن يكون مروِّعًا أكثر من الساعات الّتي قضّيتها يومها منتظرًا من منتصف النّهار إلى المساء... تخيّل غرفة صغيرة ملتهبة، تحرقها الشمس، تشتعلُ أكثر فأكثر في فرن منتصف النّهار... غرفة ضيّقة، بفراش واحد فقط، وكرسيّ وطاولة. فوق الطاولة، لا شيء غير ساعة ومسدّس.. أمام رجُلٍ... لا يفعل شيئًا غير مراقبة الطّاولة وعقارب الساعة.. رجل لا يأكل ولا يشرب ولا يدخّن... باقيًا على هذا الحال... هل تسمعني... على هذا الحال طوال ثلاث ساعات... عيناهُ مثبّتتان على إطار الساعة الدائريّ الأبيض، وعلى العقرب الّتي تدور حولهُ: تيكْ تاك.. تيكْ تاكْ.. تيكْ تاكْ... لقد قضّيتُ هذا اليوم هكذا، لا أفعل شيئًا غير الانتظار والانتظار، والانتظار... لكنّني كنتُ أنتظر مثل... مثل مسعور، دون تفكير، كما لو كنتُ حيوانًا، بتلك الشراسة الجنونيّة، وذاك الهاجس في النظر إلى الأمام دائمًا.

حسنًا... لن أصف لك هذه الساعات... من المستحيل وصف ذلك... ولا أستطيع أنا نفسي أن أستوعب كيف يمكن للمرء أن يعيش كل ذلك ولا يصبح... لا يصبح مجنونًا... إذن...

في الثالثة وعشرين دقيقة بالضبط، أعرف هذا لأنّ عينيّ كانتا مثبّتتيْن على الساعة... طُرقَ على الباب فجأة... وثبتُ منطلقًا كما يثبُ النمرُ على فريسته، وبقفزة واحدة عبرتُ الغرفة ووصلتُ إلى الباب الّذي فتحتهُ بغتة... صبيٌّ صينيٌّ واقف بخجل، يحمل في يده ورقة صغيرة مطويّة خطفتها منهُ، بينما قفز قفزة سريعة، ثمّ اختفى.

فتحتُ الورقة بسرعة لأقرأها... لكنّني لم أستطع... كلّ شيء كان متذبذبا وأحمرَ بين عينيّ... تخيّل معاناتي، بعد أن حصلتُ أخيرًا على الردّ الّذي انتظرته طويلاً منها، اضطرب كلّ شيء راقصًا بين عينيّ... أغطستُ رأسي في الماء... أصبحَتْ رؤيتي أفضلَ الآن... أخذتُ الورقة مجدّدًا وقرأت:

« تأخرتَ كثيرًا ! لكن انتظرني عندكَ، ربّما اتّصلتُ بك مجدّدًا.»

ليس ثمّة أيّ توقيع على هذه الورقة المنكمشة القادمة من أفق مّا بعيد... خربشات سريعة بقلم رصاص، مكتوبة بطريقة مُطمئنة... رغم ذلك، لا أعرف لِمَ أحسستُ بكل تلك المشاعر تجاه هذه الورقة... كان فيها شيء مّا غامض ومروّع، وكأنّها كتَبَتْها واقفة فوق زجاج نافذة، أو في السيّارة على عجل... كان ثمّة شيء مّا لا يوصف، شيء من الرعب، من التسرّع، من الخوف، يخرجُ من هذه الورقة ويجمّدُ روحي... مع ذلك... مع ذلك كنتُ سعيدًا: لقد كتبتْ إليّ، ولم يعد عليّ أن أموت، أستطيع مساعدتها... ربّما.. أستطيع... أوه ! كنت ضائعًا في

الاحتمالات وفي الآمال الكبيرة... مائة مرّة، ألف مرّة، أعدتُ قراءة الورقة، وضعتها بين شفتيّ... كنتُ أتفحّصها، باحثًا عن كلمة ضائعة قد أكون نسيتُها... وصار حلمي شيئًا فشيئًا أعمق، وأكثر اضطرابًا، وغير حقيقي مثل من ينام بعينين مفتوحتين... أحسست بنوع من الشلل، أو بشيء من الخمول إلى جانب اضطرابي بين اليقظة والنوم، واستمرّ ذلك دقائق ربّما، أو ربّما ساعات...

فجأةً، انتفضتُ في مكاني... ألم يكن ذلك طرقًا على الباب؟... كتمتُ أنفاسي... دقيقة، دقيقتيْن من الصّمت المطلق... ثمّ سمعتُ مجدّدًا، وبكلّ رقّة، مثل قضمة فأر، طرقة خفيفة، ولكن واضحة... قفزتُ إلى الباب، ولمّا أزل غائبا عن الوعي، وفتحتُه بحركة مباغتة... في الخارج، رأيتُ غلامًا، غلامَها الّذي أفسدتُ وجههُ بقبضتي... كان وجههُ القمحيّ يأخذ لونًا رماديًّا شاحبًا، بينما توحي نظرته المضطربة بأسى كبير... وفهمتُ مباشرة الكارثة الّتي وقعت... «ما الّذي حدث؟» تأتأتُ بصعوبة. «كام كويكلي (تعال بسرعة)» قال... دون أن يضيف أيّ كلمة... نزلتُ على السلّم قافزًا بكلّ خطوة على أربع درَجات، وهو ورائي... وكان ثمّة سيّارة صغيرة، «سادو»، تنتظرنا... صعدنا... «ما الّذي حدث؟» سألتهُ... كان ينظر إليّ مرتجفًا دون أن ينبس بكلمة وشفتاه مضمومتان... سألتهُ مرّة أخرى - لا إجابة... أردتُ أن أوجّه إليه قبضتي مجدّدًا، لكنّ... وفاءهُ لها مثل كلب أرجعني عن ذلك... ولم أسأله بعدها عن

أيّ شيء... كانت السيّارة الصغيرة تمضي بسرعة وسط ضوضاء الشوارع، وصراخ النّاس وهم يفسحون لنا الطريق مُطلقين الشتائم.. مرّتْ مثل البرق من الحيّ الأوروبيّ إلى الطريق المحاذي للشاطئ، في المدينة السفليّة، مبتعدة أكثر فأكثر، حتّى دخلنا إلى فوضى الحيّ الصينيّ... وسلكنا في النهاية طريقا فرعيّا ضيّقًا... توقّفت السيارة أمام بيتٍ أسفلَ الحيّ... كان قذرًا وأشبه بقوقعة، وكانت واجهتهُ عبارة عن متجر صغير مُضاء بشمعة... واحد من المتاجر الّتي يختبئ وراءها مدخّنو الأفيون، والمواخير.. عشُّ محتالين، أو وكرُ سُرّاقٍ... طرَقَ الغلامُ الباب بقوّة... همَسَ صوتٌ.. أسئلة وأسئلة من كوّة الباب... نفد صبري... قفزتُ من السياج ثمّ دفعت الباب الدّاخليّ بقوّة... هربت عجوز صينيّة مُصدرةً صرخة صغيرة... تبعني الغلام، وقادني من ممرّ إلى باب آخر، ثمّ إلى باب آخر يفضي إلى غرفة مظلمة تفوح منها رائحة الكحول والدّم المتخثّر... شخصٌ ما يئنُّ... تقدّمتُ متحسّسًا الباب...»

توقّف الصوتُ مجدّدًا. ثمّ صار أقرب إلى الصّراخ منهُ إلى الكلام.

«تقدّمتُ متحسّسًا الباب... وهنا... رأيتُ على سجّاد متّسخ شبحَ جسدٍ مُسجّى، يئنُّ وقد مزّقهُ الألم... كانت مستلقيةً هناك... لم أستطع رؤية وجهها في الظلام ولمّا تتعوّد عيناي على العتمة... لم أستطع إذن إلاّ تحسّس المكان... اعترضتني يدها... ساخنة... ملتهبة... من الحُمّى، من حمّى قويّة... ارتجفتُ...

وفهمت كلّ شيء على الفور... لقد هربت إلى هنا قبل أن تصلها رسالتي... لقد سلّمت نفسها إلى إحدى الصينيّات القذرات، فقط لأنّها ستضمن لها أكبر قدرٍ من السريّة هنا... لقد سلّمت نفسها إلى الموت على يد ساحرة عوض أن تثق بي... بسبب تصرّفاتي العبثيّة... لأنّني لم أستطع تحمّل كبريائها ولم أساعدها مباشرة... ولأنّها كانت تحتقرني أكثر من الموت...

صرختُ صرخةً عنيفة طالبًا النّور. أسرع الغلام. دخلت العجوز الصينيّة حاملةً بين يديها المرتجفتين فانوسَ بنزينٍ مدخّنًا... وكان عليّ أن أتماسك كي لا أقفز خانقًا هذه القذرة الصفراء... وضعا الفانوس على الطاولة... فأضاء وميضةُ الجسد المتعذّب أمامي... وفجأةً... فجأةً، اختفى كلّ ذاك الاضطراب، وكلّ ذاك الغضب، وكلّ ذاك الشغف المتعاظم في داخلي... لم أكن إلاّ طبيبًا، رجلَ عطاءٍ وسرعةِ بديهة، رجلَ علم... نسيتُ ذاتي... وواجهتُ الرعب بكلّ حنكة وحكمة...

لم يعُد، هذا الجسدُ العاري الّذي اشتهيتهُ في أحلامي، بالنسبة إليّ... كيف نقول هذا؟... سوى مادّة أو كائن طبيعيّ... لم تكن هي الماثلة أمامي، بل الحياة وهي تصارع الموت... إنسانٌ يتخبّطُ في آلامه القاتلة... كان دمها، دمها السّاخن والطّاهر يتدفّق على يديّ، لكنّ ذلك لم يُثر في داخلي لا رغبة ولا خوفًا... لم أكن سوى طبيب... لم أر غير الألم... ورأيتُ...

رأيتُ أنّ كل شيء سيضيع إن لم تحدث معجزة... لقد مزّقت اليدُ

البائسة والمجرمة رحمها.. كانت تنزف بقوّة... وخسرت كثيرًا من الدّم... ولم يكن لديّ في ذلك الوضع المريع شيء أستطيع به إيقاف النزيف، ولو ماءً نظيفًا... كان كلّ شيء ألمسهُ قذرًا !

«يجب أن نذهب فورًا إلى المستشفى». قلتُ. لكن بمجرّد أن تفوّهت بهذه الكلمات حتّى انتفض الجسد المعذّب، وقال بصعوبة: «لا... لا... أفضّل الموت... على أن يعرف أحدهم... أحدهم... الأمر... في بيتي... في بيتي...»

فهمت الأمر... لم تكن تصارع من أجل الحياة، بل فقط، من أجل الحفاظ على سرّها، وإنقاذ شرفها... والتزمتُ بذلك... جلب الغلام نقّالة وضعناها عليها... وعلى هذه الحالة... حملناها مثل جثّة بلا قوّة وهي تهذي... حملناها في الليل إلى بيتها... متجنّبين العامّة الفضوليّين والمرعوبين... حملناها كاللّصوص إلى غرفتها وأغلقنا الأبواب... ثمّ... ثمّ، بدأ الصرّاع، الصّراع الطويل مع الموت...»

فجأة، أمسكتني يدٌ من ذراعي بقوّة، حتّى كدتُ أصرخُ من الخوف والألم. ووسطَ الظلام، اقترب وجههُ المنكمشُ منّي بغتة. رأيت أسنانهُ البيضاء تصطكّ. ورأيتُ زجاج نظّارتيْه وهما تلمعان مثل عينيْ قطّ في انعكاس ضوء القمر... والآن، لم يعد يتكلّم. وصار يزمجرُ وقد تملّكهُ الغضب:

«هل تعرف إذن أيّها الغريبُ الجالسُ بارتياح فوق هذا المقعد، متجوّلاً بين الأمكنة عابرًا العالم، هل تعرف معنى أن ترى

شخصًا يموت أمامك؟ هل حصل لك هذا؟ هل رأيت كيف ينكمشُ الجسد. كيف تزرقُّ الأظفارُ ناشبةً الفراغ. كيف ينقبض كلّ عضو، ويتيبّسُ كلّ إصبع في رعب الاحتضار، كيف تخرج حشرجات الموت من الحلق... هل رأيت في عيون بازغة ومنتفخة هذا الّذي لا يمكن لأيّ كلمة أن تصفه أو تعبّر عنه؟... هل رأيتَ هذا أيّها المترفُ الرّحّالة، أنتَ، الّذي تتحدّث عن واجب تقديم المساعدة؟... صحيحٌ أنّي رأيتُ الموتَ سابقًا، باعتباري طبيبًا.. رأيتهُ باعتباره... باعتباره حالة سريريّة، حقيقة... وقد درستُ ذلك إذا أمكن القول... لكنّني، لم أشهدهُ إلا مرّة واحدة... ولم أشعر بذاك المخاض العسير وألم تقاسمه مع شخص مّا، إلّا في هذه الليلة المحمومة... في هذه الليلة المروّعة الّتي كنتُ أتعذّبُ فيها على مقعدي، من أجل اكتشاف شيء، أو إيجاده، أو ابتكاره كي أستطيع من خلاله إيقاف الدّم المتدفّق بلا توقّف، ومجابهة الحُمّى المستعرة أمام عينيّ والموت الّذي يقترب شيئًا فشيئًا دون أن أستطيع إبعاده عن السّرير.

هل تعرفُ معنى أن تكون طبيبًا؟ إنّهُ أن تعرف كلّ شيء عن كل الأمراض - أن يكون لديك واجب المساعدة، كما قُلتَ - وأن تكونَ في الوقتِ نفسِه عاجزًا عن إنقاذ امرأة تموت أمامك، أن تعرفَ كلّ شيء، ولا تستطيع فعل شيء... أن تعرف شيئًا واحدًا مروِّعًا، هو أنّكَ لا تستطيع تقديم أيّ مساعدة، حتّى ولو كان باستطاعتكَ تمزيق كلّ شرايينكَ... أن ترى جسدًا تحبّهُ وهو يخسر كلّ دمه، أن تراهُ يتعذّب ألمًا، أن تتحسّسَ نبضه

القوّي المتسارع والمنطفئ في آن واحد... هاربًا تحت أصابعكَ... أن تكون طبيبًا، وألاّ تستطيع شيئًا، أيّ شيء، أيّ شيء، أيّ شيء... أن تجلس في مكانك، وتُتمتمَ صلاةً مثل عجوز بائسة في الكنيسة، ثمّ ترفعُ يديكَ متضّرعًا إلى إله بائس تعرف أنّهُ ليس موجودًا... هل تفهم هذا؟ هل تفهمه؟... من جهتي، ثمّة شيء واحد لا أفهمه: كيف يمكن ألاّ نموت عندما نعيش لحظات مشابهة... أن نستيقظ مجدّدًا في اليوم الموالي، وننهضَ، لنُنظّف أسناننا، ونضع ربطة عنق... أن يكون من الممكن أن نحيا، بعد أن نعيش شيئًا مشابها لما عشتهُ، وما أحسستُ به وأنا أرى أنفاس أوّل إنسان كافحتُ من أجله وحاربتُ محاولاً إنقاذهُ بكلّ ما أوتيت من قوّة، تنزلق بين أصابعي... في المجهول... تنزلقُ بسرعة متصاعدة دقائق ودقائق، بينما لا أجدُ في رأسي المحموم أيّ فكرة لإبقاء هذا الكائن الوحيد على قيد الحياة...

وبشيطانيّة، جاء هذا ليزيد من عذابي... بينما كنتُ جالسًا قرب سريرها – بعد أن حاولت التخفيف من آلامها بحقنة مورفين، وجلستُ أراقبها مستلقية تشتعلُ النّارُ في خدّيها المحترقين، المحترقين والشاحبين – نعم... بينما كنتُ جالسا، أحسستُ خلفي بعينين لا تتوقّفان عن النّظر إليّ بثبات مروّع... كان الغلام يجلسُ القرفصاء على الأرض، متمتما بما لا أعرفُ من أيّ صلاة... وعندما التقت عيناي بعينيه... لا، من المستحيل وصف ذلك... بدا في نظرة الكلب الّتي لديه شيء من توسّل عاجز، شيء من امتنان كبير، بينما رفع يديه إليّ كما لو كان يطلبُ

منّي إنقاذها... هل تفهم... كان يرفع يديه إليّ أنا... كما لو كنتُ إلهًا... إليّ أنا، العاجزُ الضّعيف الّذي يعرف أنّهُ خسر كلّ شيء... وكان وجوده هناك أيضًا بلا جدوى مثل نملة تتخبّطُ على الأرض... آه ! تلك النظرة... كم عذّبتني... هذا الأمل الأعمى، والحيوانيّ في معارفي العلميّة... كان يمكن أن أهينهُ أو أدهسهُ بسبب كلّ الألم الّذي ألحقته بي نظرته تلك... ومع ذلك، أحسستُ أنّنا مرتبطان، نحنُ الاثنين، بما يجمعنا من حبّ لها... بالسرّ الّذي لا يعرفه غيرنا... كان خلفي مباشرة، بلا حراك، متأهّبًا مثل حيوان برّي... وكان بمجرّد أن أطلب منهُ شيئًا، ينطّ على قدميه الحافيتين الصّامتتين، ويقدّمهُ إليّ مرتجفًا... تحت وطأة نفاد صبره، كما لو كان هذا الشيء سيسعفها... كنتُ أعرف ذلك... كان مستعدًّا لتمزيق شرايينه لإنقاذها... يا لها من امرأة... ويا لقدرتها على التأثير في النّاس... وأنا... لم تكن لديّ القدرة على إنقاذ قطرة دم واحدة... أوه ! من هذه الليلة، هذه الليلة المروّعة، هذه الليلة الّتي لا تنتهي، بين الحياة والموت !

فجرًا، استيقظتْ مرّةً أخرى... فتحتْ عينيْها.. لم يكن فيهما شيء من ذلك الشموخ وذاك البرود هذه المرّة... لم يكن ثمّة شيء فيهما غير التهاب الحُمّى، بينما تتفحّصان الغرفة زائغتيْن في الضباب كما لو كانتا غريبتين عن المكان... ثمّ نظرت إليّ: وبدتْ تُفكّر، تريدُ أن تتذكّر ملامحي... وفجأةً... لقد رأيتُ ذلك... إنّها تتذكّر... لأنّ ارتعادًا، مقاومة مّا... شيئًا من العدائيّة، أو الرعب، بدا على وجهها... حاولتْ تحريك يديها وكأنّها تريد

الهروب بعيدًا، بعيدًا جدًّا عنّي... كنت أراقبها، لقد كانت تفكّر في ذلك... في الوقت الّذي... لكنّها تذكّرت بعد ذلك... ونظرت إليّ هدوء أكبر، متنفّسةً بصعوبة... أحسستُ أنّها تريد أن تقول شيئًا... وبدأت يداها تنقبضان مرّةً أخرى... أرادت أن تنهض، لكنّها كانت متعبة جدًّا... حاولتُ تهدئتها، واقتربتُ منها... ثبّتتْ نظرتَها المعذّبة عليّ طويلاً... بينما تحرّكت شفتاها ببطء... لم يكن ذلك سوى صوتها الأخير ينطفئ عندما قالت:

- لا أحد سيعرف ذلك؟... لا أحد؟

- لا أحد. قلتُ بأكبر ما لديّ من قوّة إقناع. أعدك بذلك.

لكنّ عينيْها بقيتا قلقتيْن... وبشفتيها المحمومتين، استطاعت أن تنطق بصعوبة:

- عِدْني... لن يعرف ذلك أحد.. عِدني...

رفعت يدي كمن يلقي يمينًا. قدّرَتْ قيامي بذلك... بنظرة لا توصف... كانت حنونا، دافئة، وممتنّة... نعم... ممتنّة بصدق... أرادت أن تضيف شيئًا آخر، لكنّ ذلك كان صعبًا عليها... وبقيت فترة طويلة متمدّدة، وعيناها مغمضتان، وقد أنهكها التعب.

ثمّ بدأ ذاك الشيء الفظيع... الفظيع جدًّا... ساعة كاملة... ساعة رهيبة واصلت فيها معاناتها... وفي الصباح فقط، كانت النهاية...»

صمتَ طويلاً. لم أنتبه إلى نفسي إلّا حين دقّ الجرسُ أعلى الجسر، دقّة، دقّتيْن، ثلاث دقّات قويّة - إنّها الثالثة ! صار ضوء القمر أكثر شحوبا، بينما لاح في الأفق ضوء أصفر يرتجفُ متردّدًا في الهواء بين الفينة والأخرى، وهبّت علينا نسمةُ خفيفة. نصف ساعة، أو ساعة أخرى ثُمّ يطلعُ النّهار... محا الضوءُ الفجرَ الرّماديّ... صرتُ أرى ملامحهُ بوضوح أكبر الآن، بعد أن صار الظّلام أقّلَ كثافة، وأقلّ سوادًا في ركننا ! نزع قبّعتهُ، وتحت صلعته اللامعة، بدا وجههُ المتعب مرّوعًا. ومع ذلك التفتت نظّارتاه اللامعتان إليّ مجدّدا. واستوى في جلسته، وعاد صوتهُ ساخرًا وحادًّا:

«لقد انتهى كلّ شيء بالنسبة إليها الآن، لكن ليسَ بالنسبة إليّ. ظللتُ وحيدا مع جثّتها - بل أكثر من ذلك، وحيدًا، في منزل غريب، ووحيدًا في مدينة لا يختفي بها سرّ... بينما... كان لديّ سرٌّ لأخفيهُ... نعم... حاول أن تتمثّل الوضعيّة جيّدًا: امرأة تنتمي إلى مجتمع المستعمرة الراقي، في كامل صحّتها، ذهبت قبل يومين إلى حفل في القصر الحكوميّ ورقصت هناك، ويُعثرُ عليها فجأةً ميّتة في فراشها... وبالقرب منها طبيب غريب، لنقل استدعاهُ غلامها، ولم يرهُ أحدٌ من البيت يدخلُ ولا يُعرف من أين جاء... تمّ اصطحابها إلى البيت في عتمة الليل على نقّالة، ثُمّ أغلقت الأبواب... وفي الصباح، ماتت... سيتمُّ إخبار الخدم فقط بذلك، وفجأة سيمتلئ البيت بالصّراخ... وفي رمشة عين سيعرف الجيران ذلك، والمدينة كلّها... ولا يوجدُ مَن هو مطالبٌ بتفسير كلّ هذا... إلّايَ، طبيبٌ غريب من محطّة

بعيدة... إنّها وضعيّة رائعة، أليس كذلك؟...

كنتُ أعرف ما ينتظرني. ومن حسن الحظّ أنّ الغلام كان معي، هذا الصبيُّ الشجاع الّذي كان يفهم كلّ نظرة من نظراتي. هو أيضا، هذا الحيوان الأصفر الغبيّ، كان يعرفُ ضرورة مواجهة معاناة أخرى. قلتُ له:

«لا تريد السيّدة أن يعرف أحد بما حصل». ثبّت عينيْه، عينيْ الكلب الواضحتيْن رغم التعب الّذي بدا عليهما، على عينيَّ: «نعم سيّدي (ياس سير)» قال دون أن يضيف أي كلمة أخرى. ثمّ شرع ينظّف آثار الدماء، ويرجعُ كلّ شيء إلى مكانه قدر ما أمكنهُ، وساعدتني عزيمتهُ تلك على استرجاع عزيمتي.

لم أُسخّر في حياتي كلّ تلك الطّاقة الّتي سخّرتها وقتها، أعرف ذلك، ولا أعتقد أنّهُ سيتكرّر مرّة أخرى. عندما نخسرُ كلّ شيء، نكافحُ مثل اليائسين لإنقاذ القليل الباقي. وفي حالتي هذه لم يكن هذا القليل سوى إتمام وصيّتها، والحفاظ على سرّها. استقبلتُ النّاس بكلّ برودة أعصاب، وقلتُ لهم جميعا القصّة المختلقة ذاتها: لقد التقيتُ بالغلام مصادفة في الشارع أثناء بحثه عن الطبيب الّذي أرسلَتْهُ في طلبه. لكنّني كنتُ وأنا أفعلُ ذلك بكلّ هدوء ممكن أنتظرُ... أنتظر بلا توقّف ذاك الّذي يتوقّفُ عليه كلّ شيء... الطبيبُ الشرعيّ الّذي سيعاين الجثّة قبل أن نتمكّن من وضعها في النعّش وإغلاقه عليها مع سرّها... كان ذلك في الخميس... ولا تنس أنّ يوم السبت، سيعود زوجها...

أخيرًا، سمعتُ في التاسعة صباحًا، بوصول طبيب الحالة المدنيّة، بعد أن أرسلت في طلبه – كان أعلى منّي رتبة، ومنافسي في نفس الوقت، وهو الطّبيب ذاتُه الّذي تحدّثت معي عنهُ بازدراء، ومن المؤكّد أنّه كان يعلم بطلب النقلة الّذي قدّمتهُ. أحسستُ منذ تبادلنا النظر حين نزلتُ لاستقباله أنّهُ عدوّي، لكنّ ذلك لم يزدني إلا قوة.

وما كدنا نصل إلى غرفة الانتظار حتّى سأل:

- متى توفّيت السّيدة... - قال اسمها - ؟

- في السادسة من صباح اليوم.

- متى أرسلَتْ في طلبك؟

- في الحادية عشرة ليلا.

- هل تعلمُ أنّي كنتُ طبيبها؟

- نعم، لكنّي كنت مضغوطا بالوقت... ثُمّ إنّ المرحومة طلبت منّي ذلك تحديدًا. لقد رفضت أن نتّصل بأيّ طبيب آخر.

نظر إليّ بعين ثابتة. احمرَّ وجههُ الشاحب والمتكبّر بعض الشيء. عرفتُ أنّ كلامي أغضبهُ، لكنّني كنت في حاجة إلى ذلك – كنتُ أبذلُ كلّ طاقتي من أجل قرار سريع، وكنتُ أعرف أنّ أعصابي لن تتحمّل أكثر. انتظرت أن يجيب بعدائيّة، فإذا به يقول بلامبالاة: «إذا كُنت تعتقدُ أنّكَ استطعت تجاوزي، فإنّهُ من حقّي القانوني أن أعاين الوفاة... وأعرف سببها».

لم أجبهُ. فسحتُ له المجال ليسبقني، بينما تخلّفتُ عنهُ، وأغلقتُ الباب ثمّ وضعتُ المفتاح على الطّاولة.

ماذا يعني هذا؟

وقفتُ أمامهُ بهدوء:

- ليس المطلوب تحديد الوفاة، بل العثور على سبب آخر. لقد أحضرتني هذه المرأة كي أعالجها... وبعد محاولة بائسة، لم أتمكّن من إنقاذها، لكنّني وعدتها بإنقاذ شرفها، وسأفعل ذلك. وأرجو أن تساعدني في هذا.

اتّسعت عيناهُ باستغراب:

- ألا تريد أيضًا، وتأتأ بعد ذلك، أن أتستّر أنا، طبيب الإدارة الرسميّ، على جريمة هنا؟

- بلى. هذا ما أريده بالضبط. أو ما أنا مجبر على إرادته.

- كي أخفي جريمتك، عليّ أن...

- قلت لك إنّي لم ألمس هذه المرأة، وإلّا... وإلّا لما كنتُ هنا أمامك، ولما بقيت على هذه الحالة. لقد كفّرَتْ عن ذنبها - إذا أردت أن تسمّي ذلك تكفيرًا - ولا أحد في حاجة إلى معرفة أيّ شيء. ولن أقبل بأيّ حال من الأحوال أن يتلوّث شرف هذه المرأة بلا داعٍ.

لم تزده نبرتي الصارمة إلّا انفعالاً.

- لن تقبل؟... آه... يبدو أنّك أصبحت مديري دون أن أعلم... أو على الأقل تعتقد في ذلك... حاول إذن أن تحبسني هنا... لقد أحسستُ منذ البداية بوجود شيء مّا وضيع يتطلّبهُ خروجك من هذا المأزق... رائع ما تريد القيام به... رائعة خبرتك... لكنّني سأقوم الآن بعملي، ويمكنك أن تثق في أنّ أيّ تقرير يحمل اسمي، لن يكون إلا تقريرًا دقيقًا. لن أوقّع مطلقا أسفلَ كذبة.

كنتُ هادئا جدًّا.

- بلى. في حالة مثل هذه، ستفعلُ. لأنّك لن تغادر هذه الغرفة قبل ذلك.

وضعتُ يدي في جيبي. لم يكن مسدّسي معي، لكنّهُ ارتعد. تقدّمتُ خطوة نحوهُ ونظرتُ إليه:

- اِسمعْ، سأقول لك كلمتين... كي لا نصل إلى الأسوء. لا تهمّني حياتي مطلقا، ولا حياة شخص آخر، وقد وصلت فعلا إلى هذا. يُهمّني شيء واحد: أن أفي بوعدي في بقاء سبب هذا الموت سريًّا... اسمع: سأعطيك كلمة شرف: إذا كتبت شهادة طبيّة تفيد بأنّ هذه المرأة... ماتت بطريقة فجئيّة... سأغادر المدينة والقارّة كلّها في نفس هذا الأسبوع... وفي حال رفضتَ، سأسحبُ مسدّسي وأقتلُ نفسي بعد إطلاق الرّصاص على هذا التابوت أيضا، حاملا معي يقينًا مَفادُه ببساطةٍ أن لا أحدَ... هل تسمعني... لا أحد سيستطيع

البحث أكثر. هذا يناسبُك على ما أعتقد - يجب أن يناسبك.

لا بُدّ من أنّ صوتي كان فيه شيء من التّهديد والرهبة، ذلكَ أنّهُ حينما اقتربتُ منهُ دون أن أشعر، تراجع فجأةً كما لو كان... تحت وطأة الخوف الّذي يجعل النّاس يهربون أمام الـ«آموك» عندما يركضُ شاهرًا خنجرهُ بغضب... وفجأةً، تحوّل إلى رجل آخر... مكبّل، مشلول إذا جاز التعبير... اختفى تعنّتهُ. وتمتم في محاولة أخيرة وضعيفة للمقاومة:

- ستكون المرّة الأولى الّتي أزوّر فيها شهادة طبيّة في حياتي... سنجدُ حلًّا لهذا... نعرف جيّدًا ما هو... لكنّني لا أستطيع أن أفعل ما طلبته منّي في البداية...

- مؤكّدٌ أنّك لا تستطيع ذلك. قلتُ لأطمئنهُ أكثر. (أسرع إذن! أسرع ! سمعتُ تكتكات قلبي العنيفة بين صدغيّ) - لكنّك، عندما تعرفُ الآن أنّ ذلك لن يؤدّي إلّا إلى خسارة حياة رجل، وإلحاق أذى كبير بامرأة ميّتة، لن تتردّدَ في فعل ذلك.

أشار إليّ برأسه مذعنًا. اقتربنا من الطّاولة، وفي غضون دقائق كانت الشهادة جاهزة، الشهادة ذات المصداقيّة الكبيرة، والتي ستُنشر في الجرائد فيما بعد لتؤكّد أنّ سبب الوفاة كان سكتة قلبيّة. بعد ذلك، نهض ونظر إليّ:

- ستغادر هذا الأسبوع. أليس كذلك؟

- لقد أعطيتك كلمتي.

نظر إليّ مجدّدًا. لاحظت أنّه يريد أن يبدو صارمًا وإيجابيًّا. «سأهتمُّ بأمر النعش فورًا» قال لإخفاء ارتباكه.

لكن، ما الّذي جعلهُ يقلقُ كلّ ذلك القلق المرعب عليّ؟ بغتة، مدّ إليّ يدهُ في تضامن مفاجئ: «حاول أن تتجاوز ذلك» قال لي.

لم أفهم ما أراد قوله. هل كنتُ مريضا؟ هل كنتُ... مجنونًا؟ رافقتهُ في الخروج. فتحت الباب - ولم يكن قد بقي لي من الطّاقة سوى ما يكفي لإغلاقه وراءه. ثُمّ عاد صدغايَ إلى الارتجاف مجدّدًا، بينما يومض كلّ شيء ويدور حولي، وانهرتُ قرب فراشها... مثل... مثل الـ«آموك» حين يُصرعُ في نهاية ركضه، وقد تدمّرت أعصابه وفقد وعيه.»

توقّف مجدّدًا. أحسستُ بشيء من البرد. هل كان ذلك بسبب رياح الصّباح المصفّرة فوق الباخرة؟ لكن الوجه المعذّب الّذي يضيء الشفقُ الآن نصفَهُ انكمش مجدّدًا:

«كم بقيتُ من الوقت مستلقيًا على ذلك السجّاد؟ لا أعرف. أحسست بأحدهم يلمسني. انتفضتُ فجأة. كان الغلامُ، يقفُ أمامي في خجل وإخلاص، موجّها إليّ نظرة قلقة:

- أحدهم يريد الدخول... يريد رؤيتها...

- لن يدخل أحد.

- نعم... ولكن...

كانت عيناهُ مليئتيْن رهبة. كان يريد التكلّم لكنّهُ لم يتجرّأ على

ذلك. هذا الحيوان الوفيّ يتعذّب حقًّا.

- من يكون؟

نظر إليّ مرتجفًا، كما لو كان خائفا من ردّة فعلي العنيفة. ثمّ قال - لم يذكر أيّ اسم... لكن من أين لهذا الكائن قليل الشأن، بكلّ ذلك الذكاء الّذي استفاق داخله فجأة.. من أين يأتي شعور هذه الكائنات الغبيّة بكلّ تلك الرأفة وفي ثوان قليلة؟... قال... خائفا... خائفا إلى أبعد حدّ:

- إنّهُ هو...

قفزتُ من مكاني، وفهمتُ الأمر على الفور. وتملّكتني رغبة كبيرة في معرفة هذا الرّجل. ذلكَ أنّي، هل رأيت هذا الأمر الغريب... وسطَ كلّ تلك العذابات، وسط كلّ حمّى الرعب والرّغبة تلك، وسط كل ذلك الركض العبثيّ... نسيتُ أمرهُ تماما... نسيتُ أنّ رجلا آخر كان في اللعبة أيضًا... ذلك الّذي أحبّتهُ هذه المرأة، وأعطتهُ بشغف ما رفضت إعطاءهُ إليّ... وكان يمكنُ، أربع وعشرون ساعة أو اثنتا عشرة ساعة قبلها، أن أكرههُ كرهًا شديدًا... بل أن أمزّق أوصاله... ولحظتها، لا يمكنني أن أقول لك، كم صرتُ حريصًا على رؤيته... وعلى حبّه لأنّها أحبّتهُ...

وصلتُ إلى الباب بقفزة واحدة. وجدتُ ضابطًا شابًّا وأشقر. كانت ملامحهُ حادّة ومتعبة وكان وجهه شاحبًا جدًّا... بدا وكأنّهُ طفل... صغير بطريقة مؤثّرة... شعرتُ مباشرة بعاطفة لا

توصف تجاههُ، وأنا أراهُ يبذل مجهودًا كبيرا ليبدو رجُلًا، ويُظهر مقدرتهُ... على إخفاء ارتباكه... لاحظتُ على الفور ارتجاف يده وهو ينزعُ قبّعته... وبكلّ رحابة صدر، قبّلتهُ... لأنّهُ كان يُشبهُ تماما ما تمنّيتُ، في داخلي، أن يكون عليه الرّجل الّذي أسر هذه المرأة... ليس مغويًا، أو شخصًا متكبّرًا... لا، بل مراهقًا.. كائنًا دافئًا ونقيًّا أحبّتهُ ووهبتهُ نفسها...

بقي الشّابُّ واقفًا أمامي بكلّ خجل. لم تزدهُ فضوليّة نظرتي، وحفاوة استقبالي إلّا اضطرابًا فضحهُ الارتجاف الخفيف لشاربه الصّغير النّاتئ... يجب على هذا المراهق أن يتمالك نفسهُ كي لا ينفجر منتحبًا.

- أرجو المعذرة، قال، أردتُ رؤية السيّدة... مرّة أخيرة.

ودون أن أشعر، أو أن أقصد ذلك، وضعتُ يدي على كتف هذا الغريب، وقدتهُ إلى الغرفة كما يُقاد المريض. نظر إليّ مستغربًا، ورأيت في عينيه كثيرًا من الدفء والامتنان اللامتناهي... وفي تلك اللحظة بالذّات، فهم كلانا عمق التقارب الّذي بيننا... تقدّمنا إلى الميّتة... كانت مسجّاة، بيضاءَ في كفنها الأبيض. أحسستُ أنّ وجودي معه سيؤلمها... تراجعتُ لأتركهُ وحدهُ معها... اقترب منها ببطء، بخطوات مرتبكة أيما ارتباك، ومؤلمة أيّما ألم... ومن كتفيه، رأيتُ اضطرابهُ وتمزّقهُ... كان كمن... كمن يمشي وسط إعصار... وفجأة انصرع على ركبتيه أمام السرير... تماما مثلما كنتُ انصرعتُ.

هرعتُ إليه على الفور، ورفعته وأجلستهُ على مقعد. تبدّدَ خجلهُ، وتحوّل حزنهُ إلى نحيب. لم أستطع قول شيء. ودون أن أشعر وجدتُ نفسي أربّتُ عليه وأمرّرُ أصابعي على شعره الطّفوليّ الأشقر والأملس... أمسك يدي... بكلّ لطف، ولكن بشيء من القلق أيضًا... وشعرتُ فجأة بنظرته مثبّتة عليّ:

- أخبرني الحقيقة، دكتور... تأتأ، هل انتحرت؟

- لا. قلتُ.

- إذن، ثمّة شخص... أتصوّر... متورّطٌ في موتها؟

«لا» قلتُ مجدّدًا، رغم أنّي أحسست بالرغبة في الصراخ: «أنا! أنا! أنا!... وأنتَ!... الاثنان معًا!... وعنادها، عنادها القاتل!» لكنّي تراجعتُ عن ذلك، وأعدتُ ما قلته مرّة أخرى:

- لا. لا أحدَ متورّطٌ في ذلك. إنّهُ القدر!

- «لا أستطيع تصديق ذلك»، رمرم بألم، «لا أصدّق ذلك. لقد كانت أوّل أمس في الحفل، تبتسمُ إليّ، مرسلة بعض الإشارات بينما ترقص. كيف يمكن هذا؟... كيف يمكن أن يحدث؟»

قلتُ له كذبة طويلة. ولم أكشف السرّ حتّى له هو. في الأيّام الموالية، كنّا مثل أخوين، وكانت ملامحنا ممتلئة بطريقة مّا بالشعور الّذي يجمعنا... ولم يفصح عنه أيّ واحد منّا إلى الآخر، ولكنّنا كنّا نشعر، وبطريقة متبادلة أنّ حياة كلّ منّا ارتبطت بهذه المرأة... وصلت الكلمات إلى شفتيّ أكثر من مرّة وازدحمت في

حلقي، لكنّي كنتُ أصُرُّ أسناني كلّ مرة – لم يعرف مطلقا أنّها كانت تحمل منهُ طفلاً... وأنّي كنتُ سأقتلُ الطفل، طفلهُ، وأنّها حملتهُ معها إلى الهاوية. ومع ذلك، لم نكن نتحدّث إلّا عنها، طوال الأيّام التي قضيّتها عندهُ مختبئا... لأنهم – لم أقل لك هذا – كانوا يبحثون عنّي... عندما عاد زوجها، كان النعشُ قد أغلق... لم يرد تصديق الشهادة الطبيّة... كان النّاس يتهامسون بأشياء كثيرة... وظلّ يبحثُ عنّي... لكنّني لم أحتمل فكرة رؤيته، وأنا أعرفُ أنّها تعذّبت بسببه كثيرًا... اختبأتُ... لم أخرج طيلة أربعة أيّام من شقّته، ولا أحد منّا غادر البيت... ولأتمكّن من الهروب، حجز لي حبيبها مكانًا على متن باخرة تحت اسم مستعار... وكما لو كنت لصًّا، تسلّلتُ في الليل إلى الجسر كي لا يراني أحد... بعد أن ضيّعتُ كلّ أشيائي... بيتي وعمل سبع سنوات، وكلّ ممتلكاتي... تركتُ كلّ شيء لمن يريد أخذه... لا بُدّ من أنّ كبار موظّفي الحكومة قد فصلوني من كوادر الإدارة... لمغادرتي مكان العمل دون مبرّر أو عطلة... لكنّني في كلّ الأحوال لم أعد أتحمّل العيش في ذلك البيت، وتلك المدينة، وذلك العالم الّذي يذكّرني كلّ شيء فيه بها... مثل لصّ، هربت تحت جناح الظلام... فقط كي أهرب منه... فقط كي أنسى...

لكن... عندما وصلتُ إلى السّطح... في الليل... في منتصف الليل... كان صديقنا يرافقني... وفي تلك اللحظة... في تلك اللحظة بالذّات... كان بصدد رفع شيء مّا إلى السّفينة... شيء مستطيل وأسْوَد... نعشها... هل تسمع... نعشها... لقد

لاحقتني إلى هنا، مثلما لاحقتها... وكان عليّ أن أشهدَ ذلك متظاهرًا بأنّي شخص غريب، لأنّ زوجها كان هناك... وسيأخذُ التّابوت إلى إنجلترا... وربّما سيشرّحُ جثّتها هناك... لقد أمسك بها... لقد عادت إليه الآن مجدّدًا... ولم تعُد لنا... لكلينا... لكنّني مازلت هنا... وسأتبعها إلى آخر لحظة... لن يكتشف أيّ شيء، يجب ذلك... وسأدافع عن سرّها ضدّ أيّ محاولة... ضدّ هذا النّذل الّذي هربت منهُ إلى الموت... لن يعرف أيّ شيء... أيّ شيء... ينتمي سرّها إليّ، إليّ وحدي...

حاول أن تفهم الآن... حاول أن تفهم لماذا لا أريد رؤية النّاس... ولا أن أسمع ضحكاتهم... عندما يتبادلون الغزل ويتجمّعون أزواجا أزواجًا... يوجدُ هناكَ، في الأسفل... مع السّلع، بين كراذن الشاي، وسلال جوز البرازيل... يوجدُ نعشها... ومن المستحيل أن أدخل إلى هناك، لأنّ المخزن مغلق... لكنّي أعلم بوجوده، تنتحبُ كلّ حواسّي عليه، ولا أستطيع نسيانه لحظة واحدة... حتّى عندما يعزفون هنا بالقرب منّي شيئًا من الفالس أو التانغو... كم هو عبثيٌّ، أن تزدحم كلّ هذه الأمواج فوق ملايين من الموتى، وأن يكون وجود جثّة تحت كلّ خطوة نقوم بها على الأرض أمرًا مُمكنًا... وألاّ أستطيع مع ذلك... أنْ لا أستطيع تحمّل حفلاتهم الزّائفة، وضحكاتهم المنافقة... أنا أرى هذه الميّتة، وأعرف أنّها تحتاجني... أعرفُ ذلك... بقي لديّ واجب أقوم به... ولم أصل إلى النهاية بعد... لم أنقذ سرّها بعد... لم تحرّرني بعد...»

ضجيجٌ على سطح الباخرة. صوت خطوات تتحرّك وتنزلق: لقد انطلق البحّارة في تنظيف الجسر. قفز كمن سيتمّ القبض عليه: وبدا في وجهه المنكمش شيء من الرعب. وقف، ورمرم: «سأرحلُ... سأرحلُ». كان من المؤلم رؤية نظرته الآسفة، وعينيه المنتفختيْن والمحمرّتيْن من الكحول أو الدّموع. رفض تعاطفي معه: شعرتُ في ملامحه المزرية بإحساسه بالعار، عار خيانته لنفسِه، وتحدّث إليّ طوال الليل. قلتُ دون أن أشعر:

- إذا سمحت لي بذلك، سآتي لرؤيتك هذا المساء، في مقصورتك...

نظر إليّ.. بدت على شفتيه ابتسامة ساخرة وحادّة، وخرجت كلماتهُ مشوّهة ومجروحة بشيطانيّة كبيرة:

«آها... واجبك الشّهير في المساعدة... آها... لقد جعلتني أثرثر الليل كلّه بفضل تعاونك. لكن، لا سيّدي. أنا أشكرك طبعًا. لا تعتقد أنّ ألمي سينتهي بمجرّد أن تعرّيتُ أمامك وفتحتُ لك قلبي. لقد فسدت حياتي، ولا أحد يستطيع إصلاحها... لم أخدم سعادة الحكومة الهولنديّة كما يجب... ضاعت منحتي، وها أنا أعود إلى أوروبا مُزريًا مثل كلب... كلب يلهثُ وراء نعش... إن الـ«آموك» لا ينتهي من سعاره وركضه هكذا... شخصٌ مّا يصرعه في النهاية، وسأكون قريبًا، في النهاية. لا، سيّدي، أشكرك على لطفك... لديّ من يرافقني في المقصورة... بعض زجاجات الويسكي الجيّدة القديمة، ولطالما كنّ يواسينني، ثمّ

لديّ علاوة على ذلك، صديقي القديم الّذي لم ألتفت إليه في اللّحظة المناسبة، مسدّسي الشّجاع، وأعتقد أنّ مساعدتهُ، في النهاية، أكثر جدوى من أي ثرثرة أخرى... أرجوك، لا تتعب نفسك... أليس الحقّ الوحيد الّذي يبقى للإنسان في النهاية ، هو أن يختار طريقة موته... وأن يختارها خاصّة دون تكبّد عناء مساعدة خارجيّة؟

نظر إليّ مرة أخرى بسخرية... بل بطريقة مستفزّة.. لكنّني أحسستُ بمشاعره: لم يكن يحسّ بغير العار، والعار الّذي لا ينتهي. ثُمّ استدار دون أن يلقي التحيّة، وبخطوات ثقيلة، ومتردّدة، اتّجهَ نحو الغُرف عابرًا السّطحَ تحت ضوء الشمس السّاطع. ولم أرهُ بعدها. بحثتُ عنهُ مساءً وفي الليلة الموالية في المكان الّذي التقينا به، ولكن بلا جدوى. بقي مختفيًا، وكان يمكن أن أعتبر لقائي به حلمًا، أو حدثًا سحريًّا، لو لم يلفت انتباهي، في الأثناء، مسافر آخر، يحمل فطيرة في يده... تاجرٌ هولنديٌّ ثريّ، أكّدوا لي فيما بعد أنّهُ فقد زوجتهُ بسبب مرض استوائيّ. رأيتهُ يمشي جيئةً وذهابًا بعيدًا عن النّاس، متثاقلاً، قلقًا، وسبّبت لي فكرة علمي بأكثر الأشياء حميميّة في ما كان يشغلهُ هلعًا غريبًا، وكان كلّما مرّ بالقرب منّي التفتُّ بعيدًا كي لا تخونني نظرتي الموحية بأنّي أعرف عن الفقيدة، أكثر منه.

وقعت إذن، في ميناء نابولي، هذه الحادثة المروّعة الّتي أعتقدُ أنّ تفسيرها يوجدُ في قصّة هذا الغريب. في الليل، غادر أغلب المسافرين الباخرة، وحتّى أنا، فقد ذهبتُ إلى الأوبرا ثمّ جلستُ في أحد مقاهي

«فِيَا روما» الجميلة. عندما عدنا إلى الباخرة في زورق، تفاجأت برؤية بعض الزوارق الأخرى المليئة بالمشاعل ومصابيح الأتيسيلين تدور حول الباخرة باحثة عن شيء مّا، في حين كانت عناصر من الدّرك والشّرطة، في الأعلى، وسط الظلام، وهم يمشون على السّطح جيئة وذهابا.

سألتُ أحد البحّارة عمّا يحدث. تهرّب من الإجابة بطريقة أكّدت لي على الفور أنّهُ تلقّى أمرًا بألاّ يقول شيئًا، وحتّى في اليوم الموالي، عندما استعادت الباخرة هدوءها دون وجود أيّ أثر لحادث، واتّجهت إلى جنوة، لم نستطع معرفة أيّ شيء.

حدث لاحقا، أن أتيحت لي فرصة قراءة قصّة رومانسية، نشرتها الجرائد الإيطاليّة، عن حادث مزعوم في ميناء نابولي. كانوا، على حدّ قولهم، بصدد إنزال نعش واحدة من أهمّ نساء المستعمرة الهولنديّة من الباخرة إلى زورق في الليل، بعد أن انتظروا انتهاء نشاطات المسافرين، بهدف عدم إزعاجهم بمشهد مشابه. وبينما كان زوج الضحيّة حاضرًا، انزلق النّعش وابتعد مسافة حبل كامل، وسقط فجأة جسم ثقيل من أعلى الباخرة إلى البحر، ساحبا معهُ في سقوطه الزوج والنعش، ومن يحملونه. أكّدت إحدى الجرائد أنّ مجنونًا صعد إلى الزورق منذ بداية إنزاله، بينما بالغت أخرى، وقالت إنّ الحبل انفلت، لأنّه لم يكن يحمل وزنا ثقيلاً. وفي كلّ الحالات، يبدو أن شركة الملاحة قد اتّخذت التدابير اللازمة، لإخفاء الحقيقة. وباستخدام الزوارق، ودون أن يخلو ذلك من صعوبات، تمّ التمكّن

من إخراج حاملي النعش وزوج الضحيّة من الماء سالمين معافين؛ وفي المقابل، نزل النعشُ بكلّ ثقله إلى القاع، ولم يتمكّن من إنقاذه أحد.

بالتزامن مع ذلك ظهرت في الجرائد قصّة قصيرة أخرى تعلنُ عن العثور على جثّة رجل في الأربعين من العمر، يبدو أنّ القرّاء لم يربطوا بينها وبين قصّة النعش الرومانسية. أمّا أنا، فبمجرّد أن انتهيت من قراءة هذه الأسطر سريعا، حتّى لمحتُ فجأة، وراء جريدتي، الوجهَ الشاحب والنظّارتين اللّامعتين لشبحه.

صدرت للكاتب النمساوي ستيفان زفايغ
عن دار مسعى ودار مسكيلياني
الأعمال التالية

فوضى الأحاسيس

المؤلف: ستيفان زفايغ
البلد: النمسا
ترجمة: ميساء العرفاوي

ماذا ستفعلُ في اللحظة المفصليّة الّتي ترى فيها شريطَ حياتِك كلّهُ؟ وفيمَ ستفكّر وقد استوى تاريخُكَ الشخصيُّ مجموعةً من الصّور تحدّدُ سيرتكَ الرّسميّة؟ رُبّما ستقول: هذه حياة شخص آخر لا يُشبهني.

يُربكك اسمُكَ وملامحُك القديمة. تربكُك الإشارات إذ تؤكّدُ أنّكَ عشتَ كلّ هذا. وفي المسافة الفاصلة بين ما كان وما أمكنَ لهُ أن يكون، في تلك الثانية الّتي يشتغلُ فيها عقلُك وذاكرتُكَ بسُرعة رهيبة، تنتفضُ حواسُّكَ وتتداخلُ مشاعرك، وكمن يُشاهد فيلمَ حياتِه ويعرف أنّهُ ليس باستطاعته تغيير أيّ تفصيل من تفاصيله، تتّجهُ إلى الشاشة وترجعُ منها بقبضة مهشّمة سيكفيك الدم المتقاطرُ منها لكتابة قصّتكَ الحقيقيّة.

هنا ينتقمُ الهامشُ من المركز. وهنا، تمارسُ الأحاسيسُ فوضاها الجميلة: فوضى زفايغ وشخصيّاته، وفوضى القارئ وهو يتتبّعُ مسارها بحذر.

ناظم بن إبراهيم

رسالة من مجهولة

المؤلف: ستيفان زفايغ

البلد: النمسا

ترجمة: أبو بكر العيّادي

. كنتُ دومًا منبهرةً بقوّة هذا النّصّ، بجماله اليائس، بعمقه ونضجه. هو قصّةُ قلبٍ ظلّ على أهبة الاستعداد للحبّ والموت، قلب لم يحدّه شيء كان يفنى ببراءة وإلهام، قصّةُ قلبٍ مشرق وهو يحكي، ويتعرّى أمام رجل معشوق، حياةً بأكملها. نرى الرّاوية تكبر أمام ناظرينا، وتتعلّم الحبّ بكلّ اعتداد، بكلّ سرور، ثمّ نرى الجنون يتربّص بها، ويصيبها إلى الأبد.

حينما كان فرويد والتّحليل النّفسيّ يبهران النّاس كان زفايج يرسم ملامحَ حبٍّ مدمّرٍ يراقص الموت. فهو يقول لنا إنّنا لا نمتلك مُطلقًا أيَّ أحد، وإنّ العشق المفترس من جانبٍ واحدٍ يُصيبنا بالجنون، ويقودنا إلى القبر...

في هذا الحبّ الميتافيزيقيّ العنيد من النّقاء ما يجعله متيقّظًا مُمتعًا، مثل سرٍّ يُهدّئ من روع العاشقة ويُنشئها إنشاءً. في هذا الحبّ صدًى حميمٌ يُرجّع في كلّ واحدةٍ منّا، زفرةً عذبةً مُضنية رهيبة تقودنا إلى أشدّ شياطيننا انفلاتًا..

فحين لا نتعرّف إلى أنفسنا لا يتعرّف إلينا أحد.

الممثّلة الفرنسيّة إيلزا زيلبارستاين

ماندال بائع الكتب القديمة

المؤلّف: ستيفان زفايغ
البلد: النمسا
ترجمة: أبو بكر العيّادي

في هاتين القصتين، يرسم زفايغ بلغة الفن أثر الحرب حتى في من لم يشارك فيها، من خلال شخصيتين فريدتين، كلتاهما حبيسة عالم خاص بها وحدها.

مانديل، بطل القصة الأولى،عجوز ليس له من دنياه غير الكتب، مهووس بها هوسا صار بفضله مرجعا لكل طالب وباحث في فيينا وخارجها، يحفظ عن ظهر قلب عناوينها، وأسماء ناشريها، وأسعارها جديدةً ومستعملة، ولا يكسب من ذلك غير ما يقيم الأود. عاش حياته في شغل تام عما يجري من حوله، فلم يعلم أن النمسا التي لجأ إليها شابّا، كانت تخوض حربا ضروسا ضد بلاده روسيا.

وهرمان، بطل القصة الثانية، عجوز ضرير يملك تشكيلة أعمال فنية جمّعها من عرق جبينه، ثم ألزمه فقدانُ بصره البيت، فلم يعد يدري أن الحرب التي تجيئه أصداؤها عن بعد قوّضت الاقتصاد الألماني، وأن التضخم المالي أرغم أسرته على التفريط في لوحاته بأثمان زهيدة لضمان القوت.

نصّان مؤثران يعكسان مأساة الإنسان في عالم يتهاوى، كان زفايغ شاهدًا على انحداره، ومُنذرًا بما سيحيق به من دمار أشمل.

أبو بكر العيّادي

الخوف

المؤلف: ستيفان زفايغ
البلد: النمسا
ترجمة: أبو بكر العيّادي

لقد استطاع زفايغ، بما له من قدرة على سبر أعماق النفس الإنسانية، أن يخلق عملاً بالغ التشويق، يجعل القارئ يلهث مع البطلة، الساعية إلى حلّ يتمنّع عليها، حتى صارت كالسائرة إلى حتفها بظلفها، منساقة وراء قدر غامض لا تعلم من سطّره إلا حينما شارفت على وضع حدّ لحياتها اتّقاءَ الفضيحة والعار.

إنّها حكاية امرأة من داخل الوسط الأرستقراطي ملّت حياةَ الرتابة فرامت المغامرة، وخلعت أغلالها، لتجد نفسَها مكبّلة بأغلال جديدة. وبين نداء الذات وسطوة المجتمع خيطٌ مشدود على الهاوية تقف عليه البطلة مسكونة بالرعب وحيدةً لا أحد يشاركها حالها غير زفايغ وهو يعاين هشاشة الإنسان وتقلّباته.

في هذه القصة، التي تحولت منذ العشرينيات إلى أفلام سينمائية عديدة، أشهرها من إخراج روبرتو روسلّيني وبطولة إنغريد برغمان، نجد الثيمات التي شغلت زفايغ، كالموت، والخوف من الفضيحة والعار، والاعتراف، والصفح. وكعادته يبرع زفايغ في تصوير ما يعتمل في النفس من ضرام تصويرًا ينمّ عن سعة تجربة ونفاذ بصيرة.

أبو بكر العيّادي

لاعب الشطرنج

المؤلّف: ستيفان زفايغ
البلد: النمسا
ترجمة: سحر ستّالة

كيف السبيل إلى الإحاطة بعمل روائيّ صغير إلى هذا الحدّ يكاد يشفّ لبساطته ووضوحه وكلّ ما فيه يشدّنا إلى متاهة وسمها الكاتب عمدًا بـ «رقعة الشطرنج»؟ وأيّ مدخل قد يسعفنا في استكناه خبايا أبطاله والكلّ لاعبٌ والكلّ مشاهِدٌ في نفس الوقت؟

كتب ستيفان زفايغ إلى صديقه هرمان كيستن قبل انتحاره بخمسة أسابيع: «ليس هناك شيء مهم أقوله عن نفسي. كتبت قصة قصيرة حسب أنموذجي المفضّل البائس، وهي أطول من أن تنشر في صحيفة أو مجلة وأقصر من أن يضمّها كتاب وأشد غموضا من أن يفهمها جمهور القراء العريض وأشد غرابة من موضوعها في حد ذاته».

إنّ «لاعب الشطرنج» على بساطتها رواية مراوغة ظاهرها حكاية طريفة ممتعة عن سيرة لاعب شطرنج، وباطنها رسالة وداع وجّهها الكاتب زفايغ إلى الإنسانية جمعاء بعد أن فقد الأمل في الإنسان كما حلم به ودافع عنه، الإنسان الذي تحوّل إلى آلة تدمير لا هاجس لها غير السيطرة والربح: رجل الدين، رجل الأمن، المحامي، التاجر، لا أحد نجا من الإدانة، ولا أحد حافظ على هويّته في لعبة التحوّلات. لقد غربت الشمس وآن الأوان لكي نقول وداعًا.

شوقي العنيزي

الشمعدان المفقود

المؤلِّف: ستيفان زفايغ
البلد: النمسا
ترجمة: وليد أحمد الفرشيشي

في رائعته «الشمعدان المفقود»، يتقصّى زفايغ، في أسلوب ملحميّ، رحلة الخروج الكبير وراء كنز الكنوز، شعلة الربّ، الشمعدان المفقود أو باختصار لا يخلو من الرهبة: «المينوراه».

في هذه الرواية المربكة والعجائبية في آن واحد، يقدّم لنا زفايغ، بما تحتويه ذاكرته الشفوية والسرديّة، وبما يمتلكه من قدرةٍ على الحفر في أعماق النفس البشريّة، شهادةً مهمّة عن رحلة اقتفاء الشمعدان الذي نهبه الوندال، إبان النهب الكبير لروما. رحلة من نوع آخر لم تدونها أسفار التوراة، وإن استلهمت أساساتها البنيوية والسردية، من الشمعدان السباعي نفسه، أو المينوراه، شعلة الرّب.

روايةٌ تقدّم فكرة الخلاص بشكل آخر. والخلاص عند زفايغ لم يكن أبدًا في ذلك المقدّس المفقود وإنما في تلك الرحلة الطويلة التي يقومُ بها الإنسانُ بحثا عن الأمل في أزمنة الرعب والخوف والانهيارات المتسارعة.

وليد أحمد الفرشيشي

السرّ الحارق

المؤلّف: ستيفان زفايغ
البلد: النمسا
ترجمة: عبد الكريم بدر خان

لم يتوقّفْ ستيفان زفايغ طوال مسيرته الإبداعية عن الحفر في باطن الذات الإنسانية ومكاشفة أدقّ خفاياها وأعنف انفعالاتها كالحبّ والشغف والقلق والخوف والكراهية والحقد... وقد اختار في هذه الرواية علاقة نفسيّة-اجتماعيّة ثلاثية الأبعاد: الأول بين الطفل وصديقه البارون، الثاني بين الطفل ذاته وأمه، والثالث بين الأم والبارون.

يتساءل المرء ماذا كانوا يضعون في مياه فيينا قبل مائة سنة، حتى أنجبتْ أشخاصًا بهذه القدرات الرهيبة على الغوص في أعماق النفس البشرية، وتحويل تناقضاتها إلى فنٍّ أو أدبٍ أو علم. ففي الوقت الذي نُشرتْ فيه هذه الرواية (1920)، كان فرويد يكتب عن النرجسيّة وعقدة أوديب اللتين لا تبتعدان أبدًا عن أجواء الرواية.

تحوّلتْ هذه الرواية إلى فيلمٍ سينمائيّ ثلاث مرّات، كانت الأولى عام 1933 وحينها منعت الحكومة النازية ممثّلة بوزير الدعاية جوزف غوبلز عرضَ الفيلم في الصالات الألمانية. الثانية عام 1977، والثالثة عام 1988.

عبد الكريم بدر خان

ستيفان زفايغ

آموك

سعار الحب

منتصفَ الليل، يدقُّ جرس السّفينة. يتحسّسُك المجهول بعين لا تراها. يقفُ وراءكَ ضاحكًا منكَ وأنتَ تبحثُ في زحمة الأشياء عن شيء يُشبهـك. إنّهُ هنا، جامدٌ في مكانه، يجلسُ لا مباليا. وفجأةً، دون أيّ سبب واضـح، يثبُ من مقعده ويهرول إلى الطرقات. يركض ويركض بلا توقّف وقد تلبّست به حُمّى الـ «الآموك».

إلى أين يأخذنا العشقُ وهو يأتي فجأة مثل حجر في بركة آسنة؟ وكيف سنجاريه وسط عزلتنا واختصامنا الدمويّ مع العالم؟ سؤالٌ قديمٌ بائس لا تتوقّفُ هذه الرواية عند حدود تفجيره، وإنّما تتجاوزُه إلى البحث في مَا يمكن أن تؤدّي إليه أبسط الانفعالات الإنسانيّة، وهي تتشكّل داخل نسق سرديّ استطاع فيه زفايغ أن يتمثّل جيّدًا أطروحات فرويد وانفلاتات دوستوفسكي مطعّمًا ذلك ببهارات الشّرق حيث ترادف العشقُ مع الجنون منذ قيس ليلى إلى آخر المتصوّفين الراكضين على هذه الأرض.

ناظم بن إبراهيم





ISBN: 978-9938-992-64-9

